لا تخف..

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

إ ّ الّذين قالوا ربُّنا اللّه ثمّ استقاموا تتنزّ عليهم الملائكة ألاّ تخافوا
لا تحزنوا أبشر ا بالجنّة الّتي كنتم توعد

[فصّلت: ٣٠]

¤ tK « ‹uÝ„ ‹U ‹U‰t½d¹d¼ wÐ s™
W??F?KÝ Ê ô ¨‹eM*« m?KÐ Z œ s Ë ¨Z œ ·U??
Æ¢WM'« tK « WFKÝ Ê ô WO Už tK

رواه الترمذي وقال حديث حسن

لا..تخف..

إيمـان محمَّد

الإهداء

إلى من قهروا الخوف في نفوسهم إلى الأبد..

وغرسوه قوياً مزلزلاً هادراً في نفوس العدو..

إلى من علّمونا لُغة الشّجاعة الحقّة عبر الخوف من الله تعالى وحده...

شهداء الثورة السّوريّة..

شكر خاص

للدكتور أحمد خيري العمري

على تحريضه الدائم للكتابة في زمن الثورة، لئلا يتبعثر الحبر تحت وطأة الرصاص والحديد والنار تماماً . . .

كما حرّض العقول أن تعمل، لتصهر ذلك كله في بوتقة من الجدّ والفاعليّة والحياة.

رواه الترمذي وقال حديث حسن

فهرس المحتويات

مقدمة ....
الفصل الأول - التعارف ....
هل تسقط ....
فاصلة ....
الفصل الثاني - شحذ الأسلحة ....
وللخوف في حياتنا لحظة ولادة ....
الفصل الثالث - في الزنزانة ....
انفجار في حاجز الخوف ....
الفصل الرابع - الخوف الخوف في القرآن وعبر مسيرة السيرة ....
مفهوم الأمن والخوف في القرآن ....
الفصل الخامس - في الخنادق ....
صلاة الخوف ....
الفصل السادس - تربيتنا والخوف ....
فاصلة ....
الفصل السابع - متاهات الخوف ....
الفصل الثامن - الخوف مفتاح الأمان ....
الفصل التاسع - ادخلوا عليهم الباب ....
الفصل العاشر - الهوية واحدة ولكن ....

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان لي في يوم من الأيام غرفة منزوية ألتمس فيها الهدوء والسكينة، حين أبقى وحدي مع القلم..

كانت لي طقوس كتابة معيّنة، قد لا تختلف بشكل أو بآخر عن طقوس الناس الآخرين الذين تروقُ لهم صحبة القلم.. وكانت النتائج إلى حدّ ما طيبة..

ولم يخيّل إليّ في يوم من الأيام أنني سأكتب في أجواء مختلفة تماماً، في غرف معتمة بشكل كبير، وبأنني سأتحسس مكان الحروف على حاسوبي المحمول بسبب الظلام الدامس، وأستدعي الكلمات على عجل قبل أن ينتهي شحن البطاريّة، فأضطر لانتظار الشّمس التي كانت تتأخر كثيراً عن موعدها.. - أو هكذا كنت أشعر- لتسيل الكلمات من جديد..

لم أتخيل أن الهدوء سيتم قصفه واختراقه بكلّ أنواع الأسلحة، وبأنني لن آبه بكلّ ذلك، وبأنني سأكفّ عن البحث عن منظر جميل ملهم من النافذة، فالإطلالة الوحيدة المتوفرة حالياً هي مشهد الدمار..

وبأنني سأخفض رأسي كلما سقطت قذيفة هاون على المبنى القريب من بيتنا، أو على الشرفة الموازية لشرفتنا، وبأنني سأتعايش مع صوت تحطم الزجاج حتى ينتهي الزجاج من نوافذ كل البيوت، ثم سأتعايش مع صوت تشقق الحديد، وتناثر الغبار ودخول الشظايا إلى المنزل.. وأتابع الكتابة..

لم أتخيل أنني سأعبر شوارع القنص لأصل إلى مكتبي، وأضع حقيبتي، وأفتح دفتري " الورديّ" وأنسج حكاياتي البيضاء والسوداء والرماديّة، وأستخرج منها في كل مرّة شتلة ورود جوريّة، أو ياسمينة شاميّة.. أو أنني سأتحدّث عن اللاخوف في فترة حكَم فيها الخوف، ونشر جنده وأتباعه في كل دار، وتفوّق بسلطته على كل الأجهزة والحكومات القمعيّة..

وبأننا سنجلس معاً أنا والخوف على طاولة مفاوضات وحوار، سأحاججه بكل ما أملك من دلائل وثبوتيات، سأصرخ في ضميره لأوقظه حتى يفهم أنه من جنود الله، لكنه مع عوامل الزّمن تم غسل دماغه.. وبأنني سأستغني عن الحرس، على أن يستغني هو عن قيوده الخفيّة..

وبأننا سنتناقش بكل حياد وموضوعيّة..

وسنصل معاً إلى اتفاقية وتسوية.

وسأرفع له كل قضايا الحرب والسّلم وكل أوجاع الإنسانية..

لم أفكر يوماً أن لقائي معه والذي ظننته عابراً سيتحول إلى سلسلة لقاءات متتالية..

وبأن الناس سينقسمون إلى فريقين، فريق سيجلس إلى طاولتي، وفريق معارض سوف يرحل بمجرد أن يسمع اسم من يواجه..

لكنه سيجد نفسه في يوم من الأيام معه على خط المواجهة، وسيكون عليه أن يعود بنفسه إلى نقطة الصّفر...

قصّة "أمان" التي تسردها في هذا الكتاب قد تكون قصتي.. أو قصّتك أنت..

قد تكون قصّتنا جميعاً بلا استثناء...

** ** ** **

حين تُقدم على مواجهة عدوّ شرس، حين تجد نفسك ضمن معركة تظنّ أنها أكبر من قدراتك بكثير، حين تخطو الخطوات الأولى لتؤدّي واجبك الذي أُمرتَ به، ثم تفاجأ بجيوش لا قِبلَ لكَ بها من أعداء داخل واخارج، وفتن وصراعات، ومشكلات مع نفسك ونفوس الآخرين..

حين تجد من الأمراض ما فشا ولا جسم يقاوم، لا جهاز مناعة يصدّ، فأنت بلا شك بحاجة للمواجهة الحقيقية مع الخوف..

لابد أن تعرف عدوّك لتواجهه، وقبل ذلك كله لابد أن تعرف نفسك لتقاوم.. لتستطيع الجلوس مع الخوف على كرسي المفاوضات، أو أن تحمل سلاحك ضدّه في حالات معيّنة، أو أن تعانقه وتبكي على كتفه كصديق حميم تجد الخلاص على يديه..

الفصل الأول

التعارف

الفصل الأول
التعـارف

اضطررت إلى محاولات كثيرة في استدعائه. .

كان مساعده "القلق"[1] يخبرني باستمرار بأن سيده مشغول في مهام كثيرة حول العالم، وبأنه يستقلّ طائرته الخاصّة كل يوم ليطوف بها إلى دولة فيها صراع أو نزاع، أو بلدة نائية ارتكبت فيها جريمة ما، أو إلى جزيرة منسيّة جُنّ أهلها بسبب شعورهم أنها مسكونة بالأشباح. .

لكنه اعترف لي أخيراً وبعد عناء في محاولة كسب ثقته بسرّ خطير، هو أن تمركز أعماله مؤخراً كانت في منطقة الربيع العربيّ، إذ أنه كان قبل هذه الأعوام الأخيرة مطمئناً إلى الاستقرار الذي استطاع تحقيقه في البلاد كأفضل إنجازاته، والتي ما فتئ يشيد بها

---

(١) القلق هي حالة نفسية وفسيولوجية تتركب من تتضافر عناصر إدراكية، وجسدية، وسلوكية. لخلق شعور غير سار يرتبط عادة بعدم الارتياح، والخوف، أو التردد. والقلق هو حالة مزاجية عامة تحدث من دون التعرف عليها اثار تحفيزها. على هذا النحو، يختلف القلق عن الخوف، الذي يحدث في وجود تهديد ملحوظ. وبالإضافة إلى ذلك، يتصل الخوف بسلوكيات محددة من الهرب والتجنب، في حين أن القلق هو نتيجة لتهديدات لا يمكن السيطرة عليها أو لا يمكن تجنبها. ويكيبيديا.

ويفخر أمام أقرانه معتبراً نفسه الأفضل، وبأنه الحاكم الحقيقي الذي يبسط سلطته على هذا العالم..

سألني عمّا أريده من سيده..

فأخبرته أنني أريد عقد لقاء صحفي.. مجرّد أسئلة بسيطة، وسأتكفل له بكل الضمانات التي يطلبها..

تلمست ضعف "القلق" وهو يحدثني ويتلفّت حوله، وفهمت أنه مقيّد ومحتل ومغلوبٌ على أمره.. كان كل دقيقة وهو يصرّح لي بكلامه يرجوني ألا أخبر أحداً بالمعلومات التي يقدّمها..

سألته: وهل تعتبر نفسك تابعاً حقيقياً للخوف وبأنه سيدك؟

أجاب على الفور: بكل تأكيد إنه سيدي وأنا خادمه..

ثم سكت للحظة، وشعرت أنه يفكّر بسؤالي بشكل أعمق..

ثم قال بنبرة فيها حزن وأسى: في الحقيقة لا يفترض أن أكون تابعه.. لكن له سلطة كبيرة تجبر الجميع على الانضواء تحتها والامتثال إليها..

وصرّح ونبرة ألمه تزداد..

إنني أشعر أحياناً كثيرة بالضّياع، وبأنني بلا أصل ولا هويّة.. محض وهم أو سراب، أشعر أنني مخادع كاذب، وكم أكره نفسي...

قالها وأجهش بكاء..

لا أنكر أنني تفاعلت معه، وحاولت التربيت على كتفه، لكنه انتفض قائماً وهو يرتعد. . كان وجهه مصفراً، وعيناه زائغتان. .

خشيت أن أتسبب له بسوء فأغلقت الموضوع، وهو نظر إلى ساعته، وقال وهو يتصنع الهدوء. .

سأرتّب لكِ موعداً مع الخوف، ولكن. . حذارِ أن تخطئي معه بكلمة، أو أن تغضبيه، لأنه سينزلُ وابل عقابه عليكِ. . إنها مسألة موت أو حياة بالنسبة إليكِ، وبإمكانك التّراجع عن طلبك الآن إذا شئتِ. .

نظرت إلى عينيه وشعرت أنه يحاول التخلص من حوار أطول، كان طوال الوقت يفرك كفّيه بعصبيّة. .

هززتُ رأسي وقلت له. .

- بالتأكيد موافقة. . وما لغير هذا قد أتيت. .

وانصرفت. . .

بعد أيام كان الترتيب للقاء. . وكانت جلسة المواجهة الأولى. .

أعددت العدّة، وأخذتُ حذري وانطلقت. .

رفض طلبي عبر وسيطه في أن نعقد اللقاء أو المقابلة ضمن مكان أحدده. .

في مسجد من مساجد الحيّ، أو على سجادة الصّلاة، أو على إحدى جبهات الحرب. .

كان ذكياً كفاية لأن يطلب اللقاء في مكتبه الذي فوجئت بوجوده بهذه الفخامة في حيّ محاصر، كما لاحظت وجود زجاج على النوافذ مما يندر وجوده في الحي بسبب تكرار نزول الصواريخ وتحطم الزجاج..

ولاحظت أن جدرانه بخير، لم تُصب برصاص متعمّد ولا حتى برصاص طائش.. لكنني على أي حال دخلت..

حين دلفت إلى الداخل وجدته يحتمي بطاولته الضخمة، ففهمت أن الخوف(٢) نفسه يخاف من المواجهة، فابتسمت وأقدمت وعرّفت عن نفسي..

اسمي هو "أمان" .. من المساهمات بطريقة ما ضمن الربيع العربي..

قد لا تذكرني، لكننا التقينا مراراً..

ابتسم مجاملاً، وألقى نظرة على ورقة أمامه، وهو يقول..

ربّما أعرفك.. لكنني لا أذكر.. تعلمين.. لقد قابلت أعداداً هائلة من البشر، ومن الصعب تذكر الوجوه والأسماء.. أرجوكِ تفضلي فالوقت لا يتسع.. أمامي مشاغل كثيرة..

إن كنتِ تريدين تصريحاً ما عن وضع المنطقة حالياً أو

(٢) الخوف هو شعور قوي ومزعج تجاه خطر، إما حقيقي أو خيالي. الخوف هو العدو الأعظم للإنسان، فالخوف هو السبب وراء الفشل والمرض وخلل العلاقات الإنسانية. ويخاف ملايين الناس من الماضي، والمستقبل، والشيخوخة، والجنون، والموت. ولكن الخوف ماهو إلا فكره في عقلك الباطن وهذا يعني أنك تخشى أفكارك. ويكيبيديا

مستقبلاً، فإن الأمور ستعود إلى ما يرام. . فقط عليكم أن تتحلوا بشيء من الهدوء والصّبر. .

أعترف أن المنطقة قد استهلكت مني جهداً جباراً، لكنني حقيقة أرغب بالخلاص من الأزمة فيها فلدي جدول أعمال طويل. .

- أليس غريباً أن يكون لك مكتب رسمي في هذه المنطقة؟

- همّي المصلحة العامة. . وحماية المدنيين، ولدفعهم لإخلائها وطرد الثوار منها بأسرع وقت ممكن. .

- لكن الثّوّار هم من يقوم بحمايتهم. . ومن دون سلاح ارتكبت المجازر وذُبح الأطفال والشيوخ والنساء. . ألم ترسل جنودك المجنّدة إلى أفرع الأمن لتقف مع الجلاد جنباً إلى جنب؟!!

- أخبريني الآن. . ماذا تريدين؟

- لمحة عن أهم مهامك. . ولمن تتبع. .

- لا أتبع إلى جهة محددة، المصلحة عندي هي الأساس، ومصلحتي حاليّاً وبكل تجرد هي مساعدة الدول العظمى في تحقيق سيادتها. . عموماً لست مضطراً لأن أطلعك على أعمالي ومهامي هنا، فأنا لا أعرفك كفاية، ولا يمكن أن أثق بكِ. .

- وماذا عن الشعوب المقهورة؟؟

- ستنسى القهر إذا خضعت. .

- لكنها لن تخضع..

قلتها واثقة، لكنه ابتسم ساخراً وقال..

- ألم تملّي من تفاؤلك الساذج هذا؟

- لكنه يقين.. الشعوب شُجاعة[٣] ولن تستسلم.. المسألة مسألة وقت فقط.. ولكن هل أفهم أنك أداة باسم الدول العظمى؟

استفزّته العبارة، لكنه تمالك غضبه وقال بنبرة استعلاء..

- يبدو أنكِ جاهلة بعض الشيء، لكن لا بأس.. سأعلّمك..

أنا الحاكم الحقيقي هنا، وبرغبتي أحرك تلك الدول، وبرغبتي أقدم لها المساعدات أو أمنعها عنها..

إنهم يتوقون لبسط نفوذهم على العالم ككل، واستعباد الشعوب، إنهم أقوياء فعلاً، وأنا أحب الأقوياء..

على سبيل المثال.. انظري إلى إسرائيل، دولة تستحق أن أعمل معها، فهي شريك مهم بالنسبة إليّ، والكل يخافها..

أمريكا أيضاً.. أفضل مروّج إعلامي لثقافة الخوف، خاصة من الإسلاميين، والإرهاب عنوان جميل.. مدروس.. مُقنع وقابل للتصديق.. ويترك أثراً..

(٣) الشجاعة: تنجم الشجاعة الحقيقية عن قوة نفسية وجسمية كبيرة. فهي إذن طبيعية مثلما أن التنفس طبيعي، وهذه الشجاعة دائمة لا يستطيع أي شيء أن يمسّها. الاتصالات المذهلة لعلم النفس الحديث ـ بيير داكو

- مَن يروّجُ لِمَن؟

- الطرفان.. تبادل مصالح.. لكنني على يقين بأنني صاحب السّيادة..

- منذ نزول آدم إلى الأرض؟

فاجأه السّؤال، وكأنني عدت به إلى الوراء لزمن منسي وأحداث غابت عنه..

لكنني بطبيعة الحال تابعت..

- عندما "خاف" إبليس على مكانته رفض السجود لآدم عليه السلام، كما أنه وسوس لآدم وحواء فأكلا من الشجرة.. ونزلا إلى الأرض..

بدا لي مشتتاً قليلاً.. لكنه قال..

- أرأيتِ ما أمتلكه من قوة؟

- لكن الحقّ أقوى.. لقد نزل آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض ليعبدوا الله، وكانت ذريتهما لتحقيق مشيئة الله تعالى على الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إذاً فقد كان الهدف عبادته سبحانه، وليكونوا الخلائف فيها..

نظر إلى ساعته وأخبرني أنه تعب قليلاً من استعادة تلك الذكريات.. واعتذر بلباقة، واتفقنا على إرجاء متابعة اللقاء إلى وقت لاحق..

سألته أن نجري اللقاء في مكانٍ آخر. . أقلّ رسميّة. . .

نظر بحذر وسألني. .

- أي مكانٍ تقترحين؟

- النفق الجديد الذي يقوم المجاهدون بحفره تحت أرض المدينة. .

انتفض قائلاً. .

- لا أفضل تلك الأماكن التي لا تولي احتراماً لسيادتي، ولا تقدّر للخوف قدره. .

أجبته واثقة:

- لكنهم يقدّرون للخوف قدره أكثر مما تتخيّل. .

- عُدتِ إلى التظاهر بالشّجاعة؟

- كلا. . ولكنني أحببتُ أن ألفت نظرك إلى جانبٍ آخر منكَ لا تودّ رؤيته، وخوفٌ من الحكم العدل هو الأصل والحقيقة النقية لك. .

لكلّ منّا جوانب مضيئة لا يراها، إما لأنه غافلٌ عنها، أو لأنه لا يرغب بذلك أصلاً. . لكن هذا لا ينفي أنها موجودة، وهي الأصل والأساس. .

عموماً لنا حوارٌ لاحق. . . السلام عليكم. . .

** ** ** **

انصرفت ولم أتأكد أسمعته ردّ السلام أم لم يفعل. . وعدني أن يتصل بي لاحقاً ليحدد مكان الاجتماع. .

كنت في تلك اللحظات أفكّر بمصير ثورة عظيمة انطلقت لتدفع ظلماً. .

الزمن يتسارع، والأحداث كذلك. .

ونحن نشعر أننا مكاننا لم نراوح. . ما العمل؟؟

هل تسقط؟!!

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ - فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ - إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 173 آل عمران]

بعد ـ أعوام من الجهد والعناء..

بعد آلاف الشهداء والمفقودين والمعتقلين والمهجرين والذين قضوا تحت التعذيب..

بعد أن شهدت بنفسك وداع وتشييع عشرات الشهداء رحلوا على طريق الحق ليفكوا أغلال العبودية..

بعد أن قابلت العشرات من آباء وأمهات الشهداء والمعتقلين وسمعت وجعهم وأنينهم..

بعد أن أغرقت هذه الأرض بالدماء الزكية..

بعد أن شق أنين الجرحى والمعتقلين سكون العالم وصمته..

كل ذلك رفضاً للذل والهوان والاستعباد..

بعد أن تهاوت مباني الأحياء.. وبيتك من ضمنها، حتى أخفوا معالمه.. أو اقتحموه، فجعلوا منه وكراً لمعارك يقتلون بها أهلك وإخوتك.. أو يقتلونك أنت..

بعد أن حوّلوا ملاعب الأطفال إلى أماكن تمركز لجنودهم بأسلحتهم الخفيفة والثقيلة..

بعـد أن اضـررت للتـخلي عن حلمك وقـدمت كل ألوان التضـحيات أمـلاً أن الفرج سيكون قريبـاً، وأن النصر سيأتي سريعاً . .

بعد أن شردوا كل أبناء مدينتك وحوّلوها أطلالاً . .

هل تسقط؟؟

بأي ميزان ستسقط؟؟

تقـولهـا والخـوف يعـصف في قلبك من أن ينتهي كل شيء فجأة . . وأن يتلاشى الحلم في لحظة . .

يصيبك رعب من أن تواجه عيني صديق لائم كان يحذّرك أنه طريق خطأ، وأن الصّواب أن تبقى على الحياد مشاهداً لا أكثر!!

يصيبك رعب أكبر من نظرة طفولية واحدة، من عيني ابن صديقك الشهيد أو أمه.

** ** ** **

للحظة تشعر وكـأنك تسبح في فراغ، وأن الحكاية سُرقت نهايتها السعيدة . .

وبقيتَ معلقاً فيها منذ لحظة السقوط . .

سـقـوط كل شيء، سـقـوط المفـاهيم والقيـم . . سـقـوط الأشخاص . . سقوط المدن . .

لا تجرؤ على التقدّم أو التّراجع . . والكون باتساعه في عينيك يضيق . . .

تدور بك الدنيا وأنت تفكر. .

هل عدت إلى نقطة الصّفر؟؟

في ذاكرتك تاريخ جديد لم يكتب. .

وحبر من دم خشيتَ أن يتبعثر. .

وقصص. . وحكايات. . وآمال وألم. .

في ذاكرتك كونٌ صغير أنت محتجز فيه ضمن كوخٍ يُدعى الخوف من المتابعة. .

تعبتَ وكلّت قدماك. . واستنزفك كل شيء. . ولكن. .

كيف لك أن تستمر؟ هل تتراجع؟

لحظة سكون تدفعك لأن تقرّر المتابعة. .

ولكن بطريقة تحفظ نفسك المعذّبة. .

تتابع شريطة أن تتعلم من كل الأخطاء التي حصلت لتكمل طريقك بأمان. .

تتابع. .

ليس لأنك تعتبر نفسك قشّة ستنقذ أمّة تصارع الموت ولا ترى إلا الغرق خياراً. .

بل لأن لك قلباً معلقاً فيها. . فأصبح هذا الخيار هو الأوحد بالنسبة إليك. .

لأنه اختيارك عن كامل إرادتك. .

لأنك تودّ بكل كيـانك العـيش من أجله.. والموت في سبيله..

تتابع..

لأنك وإن متّ ستترك رسالة..

أن اصنعوا من أعواد صغيرة ضئيلة تُشبهني قوارب نجاة...

قوارب حياة...

** ** ** **

خوفك من السقوط مرتبط بخوفك من أن يذهب كل الجهد هدراً..

مئات المؤسسات في كل المجالات تتجند لتعمل وتسد ثغراً..

جهود متفانية رغم وجود السلطويين والانتهازيين وتجّار الحرب والدّماء، الذين استطابوا البقاء في هذه المعركة، لمنافع شخصية أو جماعية..

** ** ** **

خوفك من أن يزيّف الإسلام ويتاجر به تحت شعارات برّاقة تسرّ الناظرين، فإذا اقتربت وجدت ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب..

من تزييف وتدليس، من قلب حقائق وتشويه، من جمود

فكر وفرض بالقوة لما نشره المصطفى صلى الله عليه وسلم بالرّحمة، من أن يضيع شباب الدين لأنهم لم يجدوا من يعلمهم ويوجههم ويبين لهم الحق من الباطل، والجيد من الرديء . .

خوفك من أن يسقط نظام ظالم وتقوم مكانه أنظمة أخرى ظالمة ولكن هذه المرة بضياع دين كنت تحلم أن تنشره على منهاج النبوة . . بكل الأخلاق والقيم، بكل الحضارة والعظمة التي فتحت القلوب والعقول . .

** ** ** **

خوفك من أن تتغيّر النّفوس، فيفتنها بريق الحياة الجديدة، فتترك الثغور خاوية، ويدمّر الحلم برمّته . .

وتُفتن القلوب الشّابّة الفتية التي تعلقت بالعمل وأحبّته . .

لتخرج ناقمة على كلّ شيء . . حتى على اختياراتها . . .

** ** ** **

خوفك من أن يتحول الجهد إلى غير مستحقيه، ويقوم على العمل أصحاب المصالح فتضيع الأمانات والحقوق . .

خوفك أنها لم تعد أرضك، فقد عاثوا بها الفساد منذ أن طفا على سطحها المتنفعون واستولى عليها العابثون . .

خوفك من ضياع أعوام من العمل الشّاق والتضحيات اللامحدودة . .

والنتيجة.. فشل وهزيمة..

انتكاسة شعب أحب الحياة لكنه لم يمتلك الصبر الكافي على فـهـمـهـا والإنصـات إلى أوجـاعـهـا.. لتلمس الأمـراض وفـهـم العلل.. وإيجاد الحلول والعمل على تنفيذها..

ولكن .. ما دمت تعمل بجد وقد كرست لذلك كل طاقاتك وجهدك..

فثق بالله الرحيم الحليم العدل..

وإلى ناصية الحلم في أرضك هاجر.. واستوطن.. واثبت هناك.. واعمل بكل ما أوتيت من عزيمة وإيمان..

ولا تخف!!

فاصلة

"يبدو لي أحياناً أنه لكي يستطيع الإنسان احتمال ضغوط الحياة، فإن عليه أن ينزل إلى الدائرة التاسعة من الجحيم. وذلك يعني احتمال ما لا يحتمل، وقبول ما لا يمكن قبوله، قبول كل ما يخيف.. الجميع كلهم.

وعندما يتهيأ له أنه تعرض لجميع مصائب هذا العالم، وأنه شرب من جميع الكؤوس المرة ما عدا تلك الأشد مرارة ليأخذها ويشربها في القاع.

يقولون: بأنه يوجد بعض الناس الذين استسلموا منذ الليلة الأولى. هل هم أولئك الذين انحدروا إلى القاع ذاته؟ وعندما عادو فإن ما بقي منهم هو ما يمكن أن يبقى تجاه العالم كله - السماء والأرض- وبدون خوف ينظرون إلى كل حقيقة في العيون. وكل ما يمكن أن يحدث لهم، ولا شيء يخيفهم، لا وجود لأي نوع من الخوف.

إنهم أولئك المستعدون لعيش حياتهم مهما كانت، والمحافظة عليها للنهاية بهدوء واحترام. وأولئك الذين يمكنهم احتمال الحياة، يمكنهم احتمال الموت، لأن الحياة أصعب وأخطر من الموت".

علي عزت بيغوفيتش

الفصل الثاني

شحذ الأسلحة..

الفصل الثاني
شحذ الأسلحة..

بعد عودتي من لقائي الأول مع الخوف، ومع ثقتي أنها خطوة لابد منها، أدركت أنني بحاجة لتجهيز أسلحتي من جديد، لتعبئة طاقتي(٤) أفضل مما يمكن..

أتاني شبح القلق كئيباً غائماً.. فأبعدته بسرعة.. إذ لا مجال لأن أنفق ما تبقى من عمري مع أوهامه..

كان يقيني أن الإنسان مهما بلغ من صفات القوة والشجاعة التي تولد معه وتكون من صفاته الفطريّة، إلا أنه يستحيل عليه أن يكمل أي طريق دون سلاح.. والإيمان هو السلاح الأوحد القادر على مواجهة عدو على مستوى الخوف، بأتباعه وسلطته، وحشوده، وأسلحته، واستخباراته..

عودة إلى القرآن والسيرة..

دائماً القرآن هو الحل، هو المخلّص من كل داء، هو معين الطاقة والقوة التي لا تنضب أبداً..

---

(٤) طاقة: تتيح الطاقة الطبيعية للإنسان أن ينتقل إلى العمل مباشرة، دون جهد ولا تشنج. والطاقة الحقيقية لا مرئية مثلها مثل الأناقة. ولئن كان على الإنسان أن "يكز على أسنانه" ويستنجد بطاقته، فذلك إنما بسبب أنه فاقدها. فالطاقة شبيهة بالإرادة في هذا المجال. إنها ينبغي أن تكون عكس التشنج والعناد.
فمن يقول "طاقة" فكأنه يقول " يسر " وسهولة في التكيف مع الظروف.

وداثماً "اقرأ باسم ربّك. ." تدفع لأن يكون "الكتاب" و "الميزان" أساساً ومنهجاً للعمل. .

اقرأ التي نزلت على رسول الله ﷺ فسببت له بنزولها بداية حالة من الخوف والفزع، لكنها أعطته الأمن والسكينة والسلام الذي صدّره بدعوته إلى العالم كلّه. .

"اقرأ" كلمة السّلام لمن تحرّاها لتغيّر واقعه. .

"اقرأ" سبيل النجاة من الخوف. . عبر العلم والفهم والعمل الصواب. .

"اقرأ" التي حاصرتها حكومات الاستبداد وحاولت أن تقزّمها، أو تصدرها عبر مفاهيمها المريضة للشعوب، أو أهملتها حتى تُنسى. . ستبقى تنبض فكراً وفهماً وسموّاً في الأفئدة يقودُ إلى نجاة. .

اقرأ مع النبي ﷺ كان أثرها مختلفاً. .

كانت لحظة تأملٍ وسكينة، حين اقتحمت " اقرأ " الخلوة المحمدية التعبدية في الغار، لتكون مفتاحاً لحياة أمّة. .

كان اقتحامها مفاجئاً عبر جبريل عليه السلام. .

اقتحام صادم، وكلمة فرضت نفسها بقوة، لتكون منطلقاً للحياة. .

في لحظة لمعت في الكون كلمة اقرأ، وما تبعها من آيات. .

ومضى محمد ﷺ إلى منزل زوجته خديجة، خائفاً يرتعد، وينادي. .

زمّلوني.. زمّلوني..

القلب مضطرب بالكلمة وما حوته، بالمشهد وما رافقه، بتلك الضّمّة الشديدة من جبريل، لتكون رسالة سكينة في لحظة خوف شديد..

وتأتي خديجة، لتتابع مهمة الطمأنة وإشاعة السّكينة.. وتأتي البشارة من ورقة بن نوفل..

" إنك لنبيّ هذه الأمّة" .

بشارة بدأت بلحظة خوف واضطراب، وانتهت بسكينة تغشى العالم بأسره..

** ** ** **

إلى الآن اقرأ منبع السّكينة في كل لحظات الخوف..

سواء عبر قرآن يرتل وتتدبر معانيه لتطبّق واقعاً حيّاً، أو بكلمة تفتح آفاق عقل مشوش، أو فكر مضطرب..

اقرأ، إلى الآن، وحتى قيام السّاعة..

ترياق مضاد للخوف، إن تناولته بالشكل الصحيح وداومت عليه، ستكتسب المناعة والقدرة على مجابهة الخوف حين يكون عدوّاً. مهما ازدادت شراسته..

** ** ** **

عبر محرّك البحث بدأت أبحث عن **جذور كلمة "خوف"** .. وحضورها في القرآن..

في لحظات ظهرت النتيجة.. ووجدت أن القرآن الكريم يتعامل مع مسألة الخوف ضمن موضوعات مختلفة.. لكن كثيراً ما تأتي "لا" ناهية عن الخوف، أو نافية له، لا تخف، لا تخافي، لا خوفٌ..

وهنا بدت أسلحة ردع الخوف أوضح ما يمكن أن تكون..

قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٣٨

- ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الأخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحزنُون﴾ البقرة: ٦٢

- ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ١١٢

- ﴿ الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٦٢

- ﴿الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٧٤

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا

الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٧٧

- ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يحزنون﴾ آل عمران: ١٧٠

- ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الأحزاب: ٦٨

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف: ١٣

اتّباع الهدى، الإيمان الكامل بالله تعالى، والعمل الصّالح الذي يُصدّق الإيمان، الإنفاق في سبيل الله بطرائقه وأشكاله، إقامة الصلاة وإيتاء الزّكاة، الشّهادة في سبيل الله، الاستقامة..

أمورٌ كثيرة تجتمع لتشكّل جهاز المناعة ضدّ الخوف..

هي لا تهبط بطبيعة الحال من السّماء فجأة، وإنّما تُبنى في نفس الإنسان لبنة لبنة، حتى تُشكّل ذلك الحصن المنيع الذي يواجه الخوف السلبي بكل وسيلة ممكنة..

وفي البحث عن تعريف للخوف(٥)، وجدت أنه:

(٥) يبدو بعض الأشخاص أنهم أولوا طاقة، في حين أن طاقتهم الزائفة هي التعويض عن ضعف. إنها موجودة لدى الضعفاء الذين أصبحوا " متبجحين "، والخائفين الذين أصبحوا "فظين" وموجودة لدى السلطويين.. ـ الاتصالات المذهلة لعلم النفس الحديث ـ بيير داكو ثقافة الخوف والسلوك الفردي ـ د. رقية السيد الطيب

غريزة طبيعية فطرت عليها نفوس البشر والحيوانات على السواء وهو انفعال مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحافظة على البقاء) (دائرة المعارف السيكولوجية).

وجاء فى تعريف موسوعة علم النفس (الخوف هو قلق عصبي او عصاب نفسي يساور المرء ,لا يخضع للعقل تصعب السيطرة عليه او التحكم ف يه وهو عملية نسبية يتفاوت فيها الناس تبعاً للعوامل البيئية والجسمية والنفسية التي يمرون بها).

** ** ** **

كان عليّ أن أبحث أكثر.. لأعرف عدوّي بشكل أكبر.. لأستطيع مواجهته وأنا أتحلى بالقوة.

العلم والمعرفة هما المفتاح دائماً.. لكنهما لا يكفيان وحدهما..

فتحت صندوق بريدي، ووجدت رسالة منه تقول..

موعدنا في مدرسة الأمل.. غداً الساعة الواحدة ظهراً..

** ** ** **

لم أفهم سبب طلبه الذهاب إلى مركزٍ لإيواء الأسر التي نزحت من أحيائها بسبب القصف الرهيب عليها، ولماذا اختار أن يكون الموعد في وضح النهار..

وصلت إلى الموعد في الوقت المحدد، انتظرت وانتظرت فلم يأتِ..

ظننتُ لوهلة أنني خُدعت. .

كـان منظري غـريبـاً بين الناس القـاطنين هناك منذ سنوات ثلاث، أي بعد اندلاع الثورة بقليل. .

لقد أصبحت تلك المدرسة وغيرها من المدارس مأوى لهم، الصّفوف غدت لهم بيوتاً. .

انتقلت بعض المقاعد إلى السّطح، وبعضها الآخر تم حرقه على مدى السنوات الثلاث للتدفئة، في ظل حصار خانق لا يسمح بدخول الوقود إلى الحي. . ولا حتى الطعام إلا بكميات لا تسد ثلث الحاجة فيه. .

تشاغلت بمشاهدة أطفال يلعبون في الباحة لعبتهم التي باتت شائعة جداً. .

لعبة الجيش الحر. .

يحملون عصيّاً يتخيلون أنها البنادق، ينصبون متراساً، ويقاتلون الأعداء بشجاعة. .

كنت أراقبهم مع طفلة صغيرة من ذات المأوى وقفت إلى جانبي بشعرها الكث وقدميها الحافيتين تراقب وتبتسم. .

تعبتُ من الوقوف ونسيت الموعد برمّته، وجلست أتابعهم لأعرف نتيجة المعركة. .

كانوا يطلبون هويّات السّكّان ويتظاهر الناس بإعطائهم إياها ويعبرون. .

تمثيلية مشتركة، تجسّد جانباً من الواقع.. من الحلم.. من الأمل والألم..

فجأة ودون أية مقدّمات، سقطت في الأرض المهملة المجاورة للباحة قذيفة هاون..

أتى صوتها وهبوطها مباغتاً صاعقاً..

دون شعور.. احتضنتُ الطّفلة التي أجهشت بكاء..

فيما ركض الأطفال الذين كانوا يلعبون إلى الداخل وسط حالة من الهلع وصراخ الأهل..

كانت النساء تبكي من الفزع، فيما تسمّر بعض الرجال في أرضهم لا يلوون على شيء..

سمعت حوقلة الشيوخ ودعائهم على الظّالم.. وأتت والدة الطّفلة تفتّش عنها..

سلمتها إياها بعد أن مسحتُ دموعها بيدي، وطبعت قبلة على جبين غطته خصلات شعرها المبللة بالعرق..

- أرأيتِ جبروت الخوف وقوّته؟!! سعيدٌ جداً لأنكِ خفتِ..

أفزعني صوته وقد أتى من الخلف، فانتفضت من مكاني.. وإذا به قد وصل...

بغضب شديد سألته..

– لقد كانت خطّة منك.. حيلة اصطنعتها لتثبت نظريّتك؟؟

أجاب بابتسامة ماكرة..

تمنيت حينها لو استطعت قتله.. لكنني تمالكتُ نفسي وسألته:

– ماذا إن استشهد أحد الأطفال بسببك الآن؟ ماذا إن جُرح أحدهم أو أصيب إصابة بالغة؟

رفع نظره إليّ ودعاني للخروج من المأوى وهو يقول..

– ليس بسببي.. أرجو ألا تكيلي الاتهامات لي من دون تفكير..

كما أخبرتكِ، أنا أساهم فيما يحقق مصالحي.. أي إن مساهمتي جانبَ واحد فقط، وليس كلّ الجوانب.. لكنني لا أخفيكِ بأنني سعيدٌ مغتبط بإنجازاتي..

انظري إلى هؤلاء الناس.. لقد كنتُ محرّضاً لهم ليتركوا أحياءهم، وهم استجابوا إذا لم يجدوا حلاً آخر.. واليوم أواصل الخطّة، لعلهم يتركون المدينة برمّتها..

– لكنك تلعب على الطرفين.. فمن أطلق القذيفة بالتعاون معك خائفٌ أيضاً.. وأنتَ دفعته لإطلاقها ليرغم الناس على الهجرة، وترك الأرض للأوغاد..

– لا تهمّني كل هذه التعقيدات.. ما يهمّني أن أكون إلى جانب القوة دائماً...

- ومن قال إنني لا أريدك أن تكون إلى جانب القوة؟ لكن عليك أن تفهم قوّة مَن ستفرض نفسها حقاً في هذا الكون. .

لم يُجبني بل ظل سائراً في الشارع الرئيسي قرب المدرسة يتابع بنشوة من السرور الناس وهم يجدّون في الوصول سريعاً للاحتماء بأي مبنى خوفاً من قذائف أخرى متتالية. . .

صرختُ به كي يتوقف. . قلت له والغضب يحتلّني. .

أنت لا تود الاعتراف بحقيقتك. . أنت تريد أن تتبع هواكَ فحسب. .

تدبّر ولو للحظة قوله تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى - فإن الجنة هي المأوى**﴾. [النازعات: 40-41]

انظر كيف اقترن الخوفُ في القرآن من مقام الله سبحانه وتعالى بنهي النفس عن هواها، بإبعادها عن مواطن الشبهات، بلجمها عند الانقياد إلى معصية، بتعويدها على الخير، فلا يستقيم خوفٌ من مقام الله تعالى وتعظيم نفس وانقياد لها. .

- توقفي أرجوكِ. . عليّ أن أذهب. . نلتقي لاحقاً. . .

أسرع بالهروب وكأن القذيفة أصابته هو هذه المرّة. .

سرتُ وحيدة في الشارع أفكّر في مخرج. . .

ليته يفهم أن الخوف الحقيقي هو الخوف من الله سبحانه. .

فهو ليس الخوف الذي درج عليه كثير من الناس ضمن أسس خاطئة في التربية حين ربطوا العبادات بالخوف والعذاب والرهبة،

وأصبحت تأدية الصلاة بدافع الخوف لا تأمل في معانيها، ولا حياة ولا روح في إقامتها، وينطبق الأمر كله على العلاقة بالله في كل مجالات الحياة..

جعلوها أداء واجب فقط، حركات وسكنات مصحوبة بخوف ورعب من نهاية سيئة، وقلوب تحجرت فيها المشاعر وتجمدت يوماً بعد آخر فعانت من غربة الروح، والبُعد عن الدين ومفاهيمه العميقة..

الخوف مع الله مرتبط بتأملات عديدة.. مرتبط بشعور الحب والرجاء، لا خوف بالمطلق منفصل عن باقي المشاعر.. لا خوف يُقيّد، بل خوف يطلق عنان الرّوح لتعمل.. رغبة ورهبة لبارئها..

خوفٌ لمقامه، وتعظيم لشأنه، واستشعار لعظمته وقدرته..

خوفٌ محفّز على الطاعات، ودافع لتجنب الأهواء، خوف يُلزمك الصّراط المستقيم..

خوفٌ علينا أن نزلّ أو نضلّ أو نُضل.. كلما فتحنا للعمل باباً.. أو نَظلم أو نُظلم أو نجهل أو يُجهل علينا..

خوف أن تعمى بصيرتنا فنسير في الحياة على غير هدى..

خوف أن نُضيع عليك حلاوة القرب منه، ولذّة الشّوق إليه، وسعادة طاعته، والرّضا المحفوف بالسّكينة لترك معصية أو تجنّبها..

خوفٌ يهبنا القوة بدلاً من أن يهزمنا. . ويعلّمنا العِزَّة، ويهبنا الشّجاعة للمبادرة والصّبر على المشاق، والسّباق للخيرات. .

خوفٌ يُصلح لنا نفوسنا، ويقوّم معوجّها حتى لا يتركها ضالة بلا ضابط ينظّمها، بلا هدف ينتشلها من ضياعها، فينطفئ نور الهداية داخلها. .

خوفٌ يعظم قدره في قلوبنا ويعلي مقامه. . فنسارع إليه محملين بكل مشاعر الحب لنشكره على نعمائه وهدايته واصطفائه. . فكم أولانا من نعم وكم أنقذنا من جحيم المعاصي والفتن. .

وكم رزقنا خوفه حتى لا نقبل بحالنا على ما هو عليه، حتى لا نقنع أن نظلّ مكاننا، فنعمل على تطوير أنفسنا والتغيير منها لنغيّر عبرها واقعنا، لنكون ممن وعوا دينهم حقاً. . فمثلوه أحسن تمثيل بأعمالهم وهممهم، ونشروه لا يرجون بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة. .

** ** ** **

للخوف في حياتنا لحظة ولادة..

لم يولد الخوفُ فجأة في نفس الشّعوب المُضّطهدة، لكنه بكل الأحوال كانت له لحظة ولادة، وكان نتاج خطط ممنهجة لاقتلاع رُوح الشجاعة في الحق، وبذور الكرامة على مرّ عقودـ. .

حين يرغب المحتل أن ينشر سلطته على أرض فإنه لا يسلب خيراتها قبل أن يسلب ما هو أهم. . يسلب العقول، ويقتل التفكير، ويحوّل الدين إلى شعائر أو طقوس مسلوبة الفاعلية والرّوح. .

يحرمها أن تنتقد، أو تعترض، وبالتالي أن تصلح أو تحاول التغيير. .

والنتيجة صمتٌ مشوبٌ بالرّعب، وضياع بلا نهاية. .

قبل الربيع العربي كان الخوف هو الحاكم. . والشّعب هو الضّحيّة. . والسّكّين التي نحرته ببطء هي سكّين الاستسلام لكلّ شيء. .

التجارب الماضية خلّفت رواسب ذُعر شديد من أن تتكرر مأساة المجازر والاعتقالات والشباب الذين قضوا زهرة أعمارهم في السّجون يعذّبون وتكال لهم كل ألوان الإهانة والتجويع واستلاب الكرامة. .

والنتيجة الصادمة التي ملأت ذاكرة التاريخ رعباً وألماً بلا حدود..

ذلك الألم المكبوت الذي لم يستطيعوا الإفصاح عنه، لم يستطيعوا شتم قاتل أولادهم أو آبائهم، لم يستطيعوا أن يقولوا ما حصل لهم إلا همساً، والقلبُ يخفق والأطراف ترتعد، والعيونُ الحائرة تتلفّت، لعل رواية شاعت أن الجدران تسمع هي رواية صحيحة، ولعل ما فعلوه بأحد الجيران ينطبقُ عليهم، ولعل باب الدّار يُكسر قبل أن يُطرق، ليجدوا أنفسهم في أقبية التعذيب، وتفنى أعمارهم في المنفردات، ولو فكروا أن يضحوا بأنفسهم، فمن ذا الذي سيسلم من عائلاتهم، لقد قتلوا فلاناً وزوجته وكل أولاده، وأطلقوا النار على الرجل المسن أمام الناس، وذبحوا الأجنة في بطون أمهاتهم..

أرادوا قتل الصّرخة قبل أن تولد، فاختفى الصوت، وجفّ الدمع، ومات القلب، وتوقّف العقل عن التفكير..

نجحوا بإقناع الشعب بالصّمت بعد أن فرّقوهم، شتّتوا غاياتهم، رفعوا السّوط في وجوههم، والويل لمن لا يهتف باسم الطاغية، والويل لمن لا يسجد - ولو معنوياً - له..

امتلأت المدن والقرى بعيون النظام وفروع الأمن، وقرّرت القلوب الجريحة أن تحافظ على الحياة فقط، بمعنى التنفس والأكل والشّرب والنوم، دون مطالب أخرى، لتحافظ - كما ظنّت - على البقاء..

كـانت فرصـة كـبيـرة لأن يبـسط النظام مـزيداً من السّلطة، ويتغلغل إلى أدق التفاصيل الحياتية، بأفكاره، وتوجهاته، وكل ما يساعده على تطويع إرادة الشعب. .

في المدارس والمسـاجـد والمعـاهد والجـامـعـات والمؤسـسـات والدوائر الحكوميّة. . .

حـاول الأنظمة المستبـدة أن تربط الشعـوب المُعـذَّبة بسـجّانهـا، بالصّور المعلّقة والشّعارات والهتافات، واستلاب الهـدف والقِيم، ولكـن الشـعـوب وإن أظهـرت ذلك الحبّ الجنوني، وصـرخت بالرّوح بالدّم فـداء للطغـاة بدافع الخوف منه، فإن صـراخـاً أعلى بكثير كان يكبر مع الأيام، يتمنى لو في لحظة واحدة يتفجّر. .

** ** ** **

الخوفُ ولد معـنا منذ أن ولدنا على هذه الأرض، رافـقنا في صرختنا الأولى ونحن نستقبل الحياة، نغّص قطرات الحليب التي كنا نبتلعها، لعلنا نكبر. . رافقنا كالظّلّ في خطواتنا الأولى ونحن نتعلّم المشي. .

كـانوا يخـافـون علينا من السّقـوط في أول الخطوات، ولم يخـافـوا من سـقـوط أكـبر وأهـم. . سـقـوط شـعـب بأكـمله من التاريخ. .

كـانوا يخافون أن نتعـثّر ونحن نسير على هذه الأرض، ولم يخافوا العثرة الأكبر. .

أن نصاب بالشّلل، لأننا ارتضينا حياة الذّلّ والخنوع. . .

الخوفُ سكن الميادين والحدائق، واستعمر السّاحات والأسواق. .

كان حاضراً بقوّة في الجرائد الرسمية والمجلات، كان مرئياً ومسموعاً، صامتاً وناطقاً. .

رافق كثيرين طوال حياتهم، وودّعهم وهو سعيد حينما أُودعوا القبور. . .

الخوف في حياتنا كانت لحظة ولادة، وله لحظة موت أيضاً. .

إن نحن أردنا له أن يموت. . القرار بأيدينا. .

والخوف يمكن أن يكون نقطة فارقة، لحظة لولادتنا نحن. .

إن نحن أردنا. . .

الفصل الثالث

في الزنزانة

الفصل الثالث

في الزنزانة

مضى أسبوع ولم أتلقّ أي اتصالٍ منه. .

خمّنت أنه مشغولٌ بمشاريعه التي لا تنتهي حول العالم. .

لم أعتقد يوماً أنه قد يفكر بمقابلتي مجدداً، أو حتى التحدّث إلي. .

لكنني تأكدت أنه مهتمّ كثيراً بالثورة السّوريّة، بكامل تفاصيلها، وبأنه وإن أظهر تشاغله وعدم مبالاته بما يحدث، فهو يراقب ويتابع بكامل التركيز. .

قررت أن أتابع ما بدأته، فلم أتعود على الاستسلام في أية معركة أخوضها، ما دمت مقتنعة تماماً أنها معركة حق ضد باطل. .

ذهبت إلى مكتبه دون موعد، كان الباب مفتوحاً دون حرس، فدخلت ولم أجد أحداً هناك. .

كان مقعده خالياً. .

تجرأت واقتربت، لعلي أصل إلى دليلٍ أو إشـارة أو مفـتاح يساعدني في مهمتي..

أمام الكرسي على الجدار، اكتشفت وجود شاشة عرض كبيرة لم ألحظها المرة الفائتة.. وفي أول درج وجدت جهـاز التحكم الخاص بها..

ضـغطت زر التـشغـيل، فـقـد دفـعني الفـضـول لأعـرف أي القنوات الإخبارية يتابع، أو أي البرامـج.. ما اللغات التي يتقنها؟ وما الثقافات التي تأثّر بها.. أية معلومة ستساهم في تشخيص الحالة وإيجاد العلاج..

لكنني صُعقت بالمشهد..

كانت الشاشة تعرض فيلماً لجثث الشهداء الذين قضوا تحت التعذيب في سجون النظام وأقبيته..

أجسادٌ أنهكها الجوع ومزّقتها السّياط.. ضربت وحُرّقت، أطراف قطّعت أو كسرت.. وفي النهاية..

رصاصة أو اثنتان أنهيا كل الحكاية...

صورٌ ومشاهد لم تعرضها القنوات الفضائية ولا صفحات الإنترنت.. تصف بجلاء وحشية تلك الكائنات التي حكمت هذه الأرض..

- أأعجبكِ المشهد؟

مرّة أخرى يباغتني ويجعلني أنتفض..

- أأعرضُ عليكِ فيلماً آخر؟

حاولت الدفاع بالهجوم وأنا أنهض من مقعده. .

- من أين لك هذه الأفلام والصور؟

قال بسخرية وبرود. .

- أولا تعلمين؟ إنني أعمل بالتوثيق في الثورة السورية. .

- كاذب. .

- سارقة! لقد اقتحمتِ مكتبي دون إذني وسوف أعاقبكِ.

- لن تستطيع. .

- سأضعك تحت اختبار الخوف لأقيس مدى قدرتك على الاحتمال وأعرف جديتك في تحقيق مطالبك. .

بدأ قلبي يخفق بضربات متسارعة. .

- ماذا ستفعل؟

- اهدئي يا أمان. . اهدئي. . هه كما ألاحظ ستعلنين هزيمتك واستسلامكِ فوراً. .

هكذا أنتم يا من تدعون الثقافة وتحملون المبادئ والشّعارات، عند أول اختبار تتنازلون. .

شعرت بالغضب يسري في عروقي وقلت له. .

- من قال ذلك؟ أنا لا أخافك. .

كان عليّ أن أحتفظ برباطة جأشي[٦] إلى أبعد حد.. لكنه كان عازماً على التنفيذ..

- حسناً.. لقد كنت أراقبك وأتوقع قدومك، وقد أوقعتِ نفسكِ بالفخ بسبب تهوّركِ... أرجو أن تظلي على رأيك هذا.. فسيكونُ هذا المكان زنزانتكِ المنفردة حتى الصّباح..

قال ذلك وهو يغلق النور ويغلق الباب الخارجي بسلسلة حديدية وينصرف..

** ** ** **

هناك في العتمة بدأ شعورُ الاعتقال والقيد يتسلل إلى نفسي.. رغم أنني لم أقيّد..

بدأتُ أتحسس معصمي..

لا أغلال فيه، لكن الظلام يمكن أن يوحي بأيّ شيء!

خطر لي أن أفتح نافذة ما لعل نوراً من الخارج ينفذ إلى الغرفة فيؤنسني.. لكنني اكتشفت أنها غرفة بلا نوافذ..

الخوفُ إذاً يكره النوافذ لأنها تبعثُ النّور والأمل..

الخوفُ يحبّ الظلام..

تبّاً للظلام!!

---

(٦) رباطة الجأش حالة من الهدوء والوضوح في جميع الظروف. فلا تفلح الانفعالات في أن تفسد السير الوظائفي العضوي أو الدماغي.

قلتها وأنا أتعثر بالكرسي أمامي..

قررت الجلوس على الأرض، ثم توجست من الحشرات.. كم أكره الحشرات!

ثم تذكرت للحظة كلّ المعتقلين في ظلمات السجون.. ما حالهم في زنزانات ضيقة لا تتسع لأجسادهم النحيلة.. ما حالهم مع أصوات التعذيب التي لا تنقطع، والتي أكّدوا لي حين خرجوا أنها أشدّ من ألم السّياط والتعذيب بالكهرباء..

تذكرت أن أقبيتهم مصانع للخوف، بدءاً من الضغط النفسي الرّهيب قبل وأثناء وبعد الاستجواب، وانتهاء بالضّرب والتعذيب الذي يصل في أحيان كثيرة إلى الموت..

تذكرت صلواتهم خِلسة بعيداً عن أعين الرقباء، وآيات رتلوها غمرت قلوبهم بالسَكينة وقربتهم من الله..

** ** ** **

جزء كبير من الليل انقضى وأنا لازلت أتحسس معصمي لأتأكد أنني حرّة..

حين قررت أن أتحداه لم أفكر بردّات فعله المجنونة هذه، لكنني بأي حال عليّ أن أدفع الثمن..

بدأ القصف المعتاد على الحي، ولكن أشدّ بكثير من المعتاد، وبدأت قذائف الهاون بتمشيطه في كل اتجاه، وسمعت انطلاق الصاروخ، وبدأ قلبي بالخفقان للحظة، فقد خيّل إليّ أنه سيسقط فوق رأسي، لكنه سقط في مكان أبعد..

عادت لي الغصة اليومية المعتادة. .

كم طفلاً يبكي في هذه اللحظات؟

هل استشهد في هذه الليلة أحد؟

هل يحتاج أحد لمساعدتي؟

صحوت من هواجسي للحظة، وفهمت الحقيقة. .

إن التخيّل والوهم من أعوان الخوف أيضاً. .

لابد أن أضبط مشاعري، وأضع حداً لكل التهيؤات، فليس كل ما أتخيله هو بالضرورة الحقيقة. . لابد أن أقهر الخوف في معركتنا، وأن أصل معه إلى نتيجة حاسمة. .

التوهم: هو الظنُّ الفاسد والخداع الحسِّيُّ وكلُّ ما هو غير مطابق للواقع. والوهم، تعريفًا، هو إدراكُ الواقع على غير ما هو(٧).

كان لابد من استمداد القوة من القرآن. .

قال تعالى: ﴿قلنا لا تخف. . إنك أنت الأعلى﴾[طه: 68]

المسألة بالنّسبة لموسى كانت مسألة حياة أو موت، مغامرة قد تؤدّي إلى مصرع، مواجهة مع طاغية نصّب نفسه إلهاً. . " فقال أنا ربكم الأعلى " .

---

(٧) يجب أن تكون رباطة الجأش الحقيقية عفوية، دون جهد كبير، وأن تكون حصيلة متوازنة ذكية. وتحصل رباطة الجأش الزائفة " عندما يسيطر الإنسان على أعصابه " ويتشنج " ويوقف استجاباته" . إنها على الغالب، محصلة تربية مغالية في السلطوية، محصلة كبت. . إلخ. ويكيبيديا.

امتحان ثقيل على موسى كان عليه أن يجتازه، مخاوف كثيرة طرأت في ذهنه، هل ستنقلب عصاه إلى حيّة فتلقف ما يئفكون؟!!

ماذا لو بقيت عصا؟ أي مصير سيقع عليه وفرعون قد حشد وأعد العدة ليهزمه نفسياً، قبل أن يهزمه عملياً أمام الجميع..

وسحرة فرعون بارعون، وهو الغريب القادم بعصاه لا يريد من متاع الدنيا وزخرفها أي شيء، لا يطمح في مناصبها إلى شيء..

هو رسول يريد أن يبلغ رسالات الله، هو رسول يريد أن ينشر النور والحق والخير..

هو رسول يريد أن يستأصل الشر من نفوسهم ويريد دين الرحمة والعدل..

يريد أن يعيشوا في هذه الدنيا أحراراً أصحاب رسالة، لا سحرة يريدون تزيين الباطل، وأن يلبسوا الحق ويدنسوه في رحلته لتبديد الظلمات..

لكن موسى لم يذهب بلا عدّة.. وإن كانت عصا.. ولم يذهب دون أن يناجي ربه ويحدد هدفه.. وينطلق واثقاً من مقصده..

هي عصا، لكنها كانت كل الأسباب التي يمكن أن يحملها في يديه..

---

(٨) مصادر الوهم ـ محمد علي عبد الجليل .

هي عصا.. لكن اليقين هو الذي سيصنع المعجزة.. مع التضحية والأخذ الكامل بالأسباب..

ومع ذلك.. انتابه الخوف للحظة..

ربّما شكّ في إيمانه وثباته، لكنه مع الله... فكان الوحي..

ألقها ولا تخف...

أنت الأعلى..

بإيمانك.. بتضحياتك.. بعملك.. بهمّتك.. بقدرتك وشجاعتك على المواجهة..

أنت الأعلى.. أنت العزيز بالله.. وهم أذلاء من دونه..

وفي تلك اللحظة يزول الخوف، ويمتلك المرء قوة هائلة للمواجهة، ما كان يظن أنه سيمتلكها يوماً.. لككنها تشكلت في نفسه رويداً رويداً.. مع كل خطوة شجاعة قادته لتحقيق رسالة الله..

زال الخوف.. وتحققت الغاية بشكل لم يتخيله يوماً...

سقط قناع الطاغية، وظهر الحق، وعلا موسى المؤمن بالله..

وانقلب السحرة ساجدين...

** ** ** **

سمعت خشخشة المفاتيح تفتح قفل الزنزانة.. نهضت لأثبت له أنه لم ينل منّي..

النور تسلل من شق الباب، ورافقه فضوله في رؤية حالي..

ابتسمت وقلت..

- لازلت بخير..

- كيف تفعلون ذلك؟

- ماذا نفعل؟

- تتغلبون عليَّ في لياليكم الحالكة؟

- نستعين عليك بمن هو أقوى منك.. نستعين بالقوي في لحظات قوّتنا وضعفنا.. ولهذا نستمر..

سأذهب الآن.. لأتابع بحثي...

الخوف في ظل الاستبداد

يرتدي الخوف في ظل الاستبداد أجنحته ويحلّق كيف يشاء في الأرض..

في خيالات الناس، في حلم الطفولة، في كل بادرة لانطلاقة فكر، أو نهضة روح، أو تفتّح همّة..

تُغلق العقول، لأن التفكير محرم، وإن حدث، فتحت شعار: لا أريكم إلا ما أرى..

وهم بطبيعة حالهم لا يجرؤون على رؤية إلا ما يرى..

منهم من يتخذ الهجرة حلاً للهروب من شبح الخوف، والعمل تحت سقف ما من الحرّيّة، تجنباً من خطورة المواجهة، وأبعادها، وآثارها.. مع برمجة العقل على النسيان..

ومنهم من يقبل بالعيش تحت سقف الوطن، وهو مدركٌ أنه لا يختلف بشيء عن الزنزانة المنفردة، فما فائدة التجوال على أرضه، والعقلُ أسير...

تموتُ المشاعر الإيجابيّة بموت أشياء كثيرة، أو تحلّ محلها مشاعر سلبية، يرتبط الحبّ فيها بأشخاص وأشياء.. ويُنسى الحُبّ للفكرة، والحماس لها، والعمل من أجلها..

يُصبحُ الحبّ مُبتذلاً بلا قيمة، كيف لا يكون، وهو الوليد الشرعي للخوف..

يولد حين يولد مصفّداً بالأغلال، بالمادّيّة، ويكون محروماً من النُّبل والسّمو والصّفاء.. أهمّ صفاته..

يغدو مقتصراً على نطاق الأفراد، يتلاشى حبّ الأمّة، حبّ المسلم لأخيه المسلم، حبّ الأرض، حبّ الخير، حبّ العطاء..

فالحبّ المشروط ليس بحب، والحب الملوّث ليس بحب، والحب البعيد عن الله.. ليس بحب..

الحبّ الذي لا يدفع شعباً للتضحية في سبيل كرامة وطنه، ليس بحب..

والحب الذي لا يُغري مهاجراً بالعودة وتقبيل تراب وطنه الجريح، والعمل على مداواة جراحه، ليس بحب..

الحب الذي لا يرتبط بالتّضحية، حبّ شكلي، هامشي، لا يدوّن في كتب التاريخ، ولا تذكره القصائد، ولا تتعرّف إليه الأرض بل إنها تُنكره..

الحبّ الذي يقبل بالحياد تحت سقف الظلم، ليس أبداً بحب..

وفي ظلّ الاستبداد.. عاديّ أن يرتدي الحبّ أقنعة كثيرة.. لكن الحقيقة أن أياً منها لن تشبهه بأي شكل!

تغدو الحياة فقيرة بمن يسكنها، بأشباه آلات، يظنون أن من مزاياهم أنهم يصلّون ويصومون ويتلون القرآن.. ويفتشون عن سُبل العيش للبقاء وحسب، وليس للعمل الحق في عمارة

الأرض، في بنائها، في النهوض بها من القاع إلى القمة..

العبادات كـالأرواح جافّة، لأنها لا تتحـوّل إلى أعمـال.. ولأنّها أيضاً مقيّدة، بقيود أكبر غير مرئيّة، قيود مفروضة على العقول..

لا تعمل بمفردها، بل تسيطر عليها مؤسسات تقودها نحو اتجاه واحد، تصبّ العقول فيها بقالبٍ واحد، تتعامل معها بنظام آلي فقير.. أو روحاني مغرق التحليقَ في عوالم الخيال بعيد عن المُراد والمطلوب من خلق بني آدم..

تفرض نظام تفكير موحّد، يُحجّم الإسلام في شيخ أو مذهب.. وتُسهم في تقليص الخير وتحجيمه..

وتمضي عقودٌ والمنابرُ تصدح بالأفكار ذاتها، والمواعظ ذاتها..

تتقلّب أحوال الأمة بين سكون واضطراب، تضجّ الأرض بالمظالم والآلام، تكاد تتصدع من أنين المظلومين.. والمنابر هيَ هيَ لم تتغير، أو تتبدّل، موضوعاتها المطروحة للناس هي ذاتها، والنفاق للسلطان وتعزيز الولاء له، والدعاء له ?على جوره وبطشه وظلمه - لا يتغير..

ودروس العلم لا تحفّز على العلم إلا بين دفّتي كتاب واحد، وفكر أوحد، والحظرُ مستمر على التفكير..

والقرآنُ سلعة الحلقات في المساجد تحت ظل السلطة الظالمة، تُسلب منه معانيه، ويتحوّل فقط إلى مشاريع حفظ، وسباقات

سُرعة، لا تبحّر في معانيه، ولا تدبّر في مقاصده، ولا تفكّر في آياته..

والنتيجة..

جيلٌ جاهل مهزوم ومستكين.. محروم من نعمة فهم الإسلام، ومن سعادة تطبيقه الحقة!

جيل غير قادر على الانطلاق، وكيف ينطلق وهو يترجم الحجاب بقطعة قماش وحسب، ويترجم الدين بصلاة لها حركات وسكنات مفرغة الروح، بدلاً من أن تكون نقطة انطلاقة لتغيير العالم..

عندما يُربى جيل على أن مواصلة الدعاء ليل نهار سيُحدث التغيير، مع ملازمة البيوت تجنباً للفتنة، وإغماض العيون عن الواقع وثغوره واحتياجاته، لأن التغيير مسؤولية الكبار والنخب فقط..

فإن ذلك يضع الأقفال في عقولهم، ويمنعها من أن تتحرر الفكرة لتغدو أفعالاً..

وبذلك ننتج شخصيات عاجزة عن اتخاذ القرارات الشجاعة، وعاجزة أيضاً عن القيام بواجباتها لأنها فهمت أن القيام بالواجب لن يتحقق إلا في ظروف مثالية، وهذه الظروف ستتحقق بمزيد من الانتظار والقعود.. وبكثير جداً من الدعاء.. وبذلك يفسح الطريق نحو مزيد من الهزائم والانتكاسات، والتي لن تؤدي إلا إلى مستقبل أكثر سوءاً..

﴿قل هو من عند أنفسكم. . ﴾ [آل عمران: 165] .

** ** ** **

العقول جُمّدت، والأجساد مجرّد قوالب تعمل. .

والقلوب تخفق في اتجاهات كثيرة مبعثرة، ولا تتطلّع أبداً إلى السّماء. .

والأرواح سجينة معذّبة، أو مقتولة منهكة. . أو مسلوبة الهمّة. .

لا تمتلك حق الحلم، ولا حق تطوير الحلم، ولا حق الوصول إليه وخلق حلم جديد. .

كمصباحٍ خافتٍ قد ينطفئ لأول نسمة عابرة. .

فكيف سيصمد أمام الأعاصير التي تعصف بالأمة؟!

** ** ** **

بسبب الخوف ترسم سجنك بيديك، وتعطي الأوامر لعقلك كي يستجيب ويذعن. .

تقضي العمر تنتظر الخلاص ولا تجده. .

تنتهي أيّامه ولا تصل إلى نتيجة. .

يصبح الناس متشابهين كلهم، وإن اختلفت الملامح، أو الطبقة الاجتماعيّة، أو التحصيل العلمي. .

لا فرق بين من يمتلك أيّاً من ذلك، وبين من لا يمتلك شيئاً من ذلك. .

كلّهم قبلوا أن يكونوا عبيداً. . . . في مملكة الخوف!

بطريقة ما، أو بأخرى. .

كان حضور الخوف قوياً ومنظماً، وكان كسر حاجزه الصّلب يتطلّب معجزة. .

والشّعب المقهور الذي عاش على فكر الخُرافة الذي ساد نتيجة الظلم والقهر، كان ينتظر حدوث هذه المعجزة، دون أن يتكبد عناء السؤال. . كيف؟ ومتى؟ ومن الذي سيقوم بالتغيير؟!!

انتظار البطل الخارق، الرّجل الأسطورة، القائد الهمام المُنتظر. .

وليس صناعة جيل فريد، متفكّر، عاقل، مؤمن بالله حقاً، مقيم لدينه في نفسه قبل أن يقيمه في الأرض. .

لكن ذلك الحال من الركود لا يدوم. .

فغالباً مع عوامل الضغط الكثيرة، وتفشّي الظلم إلى حدود القهر. .

يحدث الانفجار. . .

** ** ** **

انفجار في حاجز الخوف

تلك الهموم التي طويت الليالي تفكر بها، تلك المواجع التي كانت تتقلب معك أينما تقلبت على فراشك، نفق الخروج الذي كنت تنقّب عنه وأنت تردد " هل إلى خروجٍ من سبيل" ؟!!

مسكنات الآلام التي كانت تفقد مفعولها مع كل جريمة كبرى، وكلّ عدوان على الأمة..

لتتشكل صرخة كبيرة في داخلك يكبتها العجز، لتتحوّل غالباً إلى أنين متقطع، أو صراع مع موت لا يأتي، لأنه لن يأتِ إلا في موعده.. وأنت أمامك متسع من حياة.. فما أنتَ فاعلٌ بها؟!!

** ** ** **

الفرص التي تنتظرها عادة لتأتي إليك لا تأتي أيضاً، تفهم لاحقاً أن عليك البحث والتنقيب عنها..

خلقها، وإيجادها..

تحاول العمل على نطاق قدراتك، تدركُ تماماً أن ذلك ليس بكاف، لكنك تعمل بأي حال، تترقب ساعة صفرٍ لا تعلم متى ستأتيٍ، تعد العدّة، لعلها تأتي بطريقة أو بأخرى..

تُفاجأ أنها تأتي أسرع بكثير مما توقعت.. ولكن..

على هيئة انفجار..

** ** ** **

حاجز الخوف ينفجر فجأة، تسمع لانفجاره دويّاً عظيماً في داخلك، تتبعثر الشظايا حولك، تصيبك حالة غريبة، وكأنك فقدت وعيك للحظات ثمَّ عادَ إليك..

عادَ مختلفاً، قويّاً، ناضجاً.. عاد ليقودك على التحدي، والصدع بالحق..

أتراها تلك اللحظة قد حانت؟!!

تسأل نفسك، وتجيب..

لابد وأنّها قد حانت..

تنطلق إلى الشّوارع والسّاحات هاتفاً معهم، منادياً بحرّيّتك، لا تأبه بتحذيرات من حولك، ولا بصوت الرّصاص، أو دوريات الأمن المتربصة الباحثة عنك دون أن تأبه بالتّفاصيل أو أن تدقق في هويتك..

وأنت لأول مرّة تنطلق، تحمل هويّتك في ثنايا روحك، تشعر بانتمائك الشديد لها أكثر من أي وقت آخر.. وتهتف..

تهتف إلى أعلى درجة صوت ممكنة..

لتكتشف حدود صوتك ومداه وأبعادك ضمنه..

لتُطلقه من قيده، حتى وإن اختفى للحظات بسبب تلك الشّدّة..

إذ لابد للخروج من الشّدّة شدّة أكبر، طاقة أكبر وأعظم..

ولأول مرّة تكتشف أيضاً أنك قد تحررت.. حتى وإن ألقيت نفسك ضمن نار مُحرقة..

** ** ** **

﴿قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[الأنبياء: 69]

كم من نار تجد نفسك داخلها، ابتلاءات وفتن، مشكلات وأزمات، همومٌ وآلام، ما كانت لتصيبك لو قررت أن تعيش حياة البهائم والأنعام..

تعرفُ أنها نار.. وتتابعُ طريقك..

تعرفُ أنها مُحرقة.. لكن لا خيار أمامك سوى المتابعة بكل الإيمان واليقين والسّكينة..

تعرف أنها نار... ويصرخ من حولك بك، كي تتخلى عن ثوابتك لئلا تحترق..

يصرخون.. فللنار رهبة.. وخوف.. وأذى..

لكنك تتابع، بعد أن أدّيت ما عليك.. مُسلماً روحك لله، موجهاً وجهك إليه...

وهناك.. ضمن تلك النار العظيمة التي ظنوا أنها قد أهلكتك..

تجد برداً وسلاماً لم تتخيل أن تجده..

تجد شعوراً بالقرب من الله تعالى يغمرُ روحك . .

تجد سعادة لم تكن تستشعرها حتى فيما ظننتها أسعد أوقات حياتك . .

لم يكن دخول تلك النار التي أوقدوها هدف إبراهيم . . .

لم يكن هدفه الموت . . بل الحياة العامرة بالخير في سبيل الله . .

ولم يكن موعوداً بذلك البرد والسلام . .

كان الأمر امتحاناً له، وعلى قدر إيمانه يكون الثبات، وتُجنى عاقبة العمل . . .

** ** ** **

ذلك الصّوت الهادر الذي كبتته طوال عمرك، وتلك الصرخات التي بذلت جهداً لإخفائها . .

الشعارات التي ناديتَ بها، هي رصاصة صوّبت نحو عرش حاكم ظالم .

كيف إذا كانت النداءات والهتافات تكبيراً . .

كيف إذا كان مستمداً من نورٍ كامن في أعماقك؟

كيف إن كان مع جماعة قرروا ذات قرارك . .

أتوا من المساجد والشوارع والمدارس والجامعات والوظائف والمقاهي والأسواق . . أتوا من كل مكان في المدينة ليعلنوها كما أعلنتها . .

الله أكبر . .

دائماً قادرة على تفجير أكبر حاجزٍ للخوف . .

قادرة على تبديده وأهله إن صدق حاملها . .

الله أكبر . .

بدلالاتها الواسعة، بأبعادها العظيمة، بكل معاني العزّة التي تحملها لمسلمٍ مظلوم قرر ألا يسكت عن ظلمه، وأن يدافع عن حقه وأرضه حتى يستعيدهما . .

الله أكبر . .

صفعة لكل من يسمعها ولا يؤمن بها . .

أيّ شيء لديك أكبر من الله جل جلاله تستند إلى قوّته؟

أيّة عزّة تقوّيك؟

هذا أنا هنا . .

أنا العبد القويّ بالله، قررت ألا أحمل سواها في قلبي، فوجدت أنها حوّلتني منذ أن آمنت بها حقاً، من قزم إلى عملاق، وأنا آتٍ إليك لأستعيد منك الحقوق، وأردّ كيدك، وأنتصر لكل مظلوم . .

الله أكبر . .

ترعبهم لأنها الحق، والحق قويّ، ورغم أنه كذلك فقد عمينا زمناً عن رؤيته، وغفلنا عن استعادته . .

الله أكبر..

تبدأ بكلمة، وتنتهي بمشروع حياة، يتعلق بك وبأمّتك..

يرتبط بك مدى الحياة، يرافقك إلى قبرك، يودّعك هناك..

ليتابع من بعدك ما خلفته من أثر..

الله أكبر..

قادرة على صنع الفرق لمن يعيها، لمن يسير على أصولها، لمن لا يستغلها لنفسه، بل ينذرها لخالقه..

قادرة على أن تغيّر واقعاً أسود، بتغييرها المفاهيم السوداء.. والأفكار السوداء، والأيدي السوداء، والقلوب السوداء..

لتبني جيلاً ينبض طُهراً ونقاء..

الله أكبر..

تحرسك أينما اتجهت، تثبتك عند كل أزمة، تنتشلك من القاع إلى القمّة، تملأ قلبك بالسّكينة، وروحك بالطهر..

توجهك أينما توجهت إلى الخير، تحوّلك إلى خير..

تشدّ من أزرك، تهبك القوة والحجّة والحافز..

تدفعك لإصلاح نفسك، وأنت تعمل على إصلاح هذا العالم..

الله أكبر..

تكون معك شاهدة عيان على انفجار حاجز الخوف، وتفرض بحضورها هيبتها..

تجعلك تندم على كل لحظة قضيتها من دون ذلك الشعور، دون تلك الحياة الحقة، المبنية على الفهم الحر، والإيمان الحق، والتفكير الصحيح، والعمل الصّالح..

** ** ** **

بمجرّد أن تخطو الخطوة الأولى ساعياً إليه، يحتويك بمحبّته، يهبك من اليقين ما يدفعك لأن تواصل..

يراقبك وأنت تتحدى الصّعاب، يُشعركَ بمعيّته في أقسى اللحظات..

يختبركَ لتزداد وعياً.. وقوّة.. وجَلَداً..

لتصهر تجاربك في بوتقة إيمانك..

لتنشرها مشعّة نيّرة في أرجاء الأرض...

وهناك.. في البعيد.. حيث لا أحد يرى حالك سواه..

يُسبغ على قلبك من الصّبر ما تعجب له..

فقط... لأنه يريدك أن تصل....

الفصل الرابع

الخوف في القرآن
وعبر مسيرة السيرة

الفصل الرابع

الخوف في القرآن وعبر مسيرة السيرة

خرجت من زنزانة الوهم التي سجنني الخوف فيها، لأشعر أنني ارتقيت بنفسي إلى مرحلة جديدة، هي ليست بشيء أمام معاناة المعتقلين، وهي أيضاً ليست بشيء أمام ثباتهم..

كنتُ متعطشة للحياة، كمولودة أتت إلى الحياة للتو..

لكن قلبي كان يخفق بشغف لأتعرف على الخوف من جديد عبر السيرة..

** ** ** **

الخوف عبر السيرة

خـلال المرحلة المكّيّـة، عـانى المسلمـون من أذى المشـركين وبطشهم، مما جعلهم يحاربون الخوف بأساليب كثيرة..

دفعـهم لتعلم السرية والكتمـان، وتنظيم الرقـابة ونظام الاستخبارات ضد الكفار، دفعهم لحماية بعضهم بعضاً، والتعـاطف والمحاولة الحثيثة ألا تصل عيـون الكفار إليـهم في تحركاتهم وعباداتهم ولقاءاتهم..

كان الهم أن يتم الأمر، وكان الدين هو الأولوية، مما طغى في نفوسهم على كل شيء، وجعلهم يتلقون الأذى صابرين محتسبين، وقد تعمق معنى أحد.. أحد.. فكان الصبر على الأذى والثبات..

أثّر ذلك كثيراً على الصحابة، وتعبت نفوسهم لشدة الأذى والتعذيب..

فقـد شكى خباب إلى النبي ـ ﷺ ـ، فقال: (شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا – ألا تدعو الله لنا –، قال ـ ﷺ: كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب

من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون. (البخاري)

الخوف على الدعوة دفعهم لحفظها بالهجرة إلى الحبشة، وحين تمت البيعة وتهبت يثرب لاستقبال النبي الكريم في رحابها، لم يقيده خوفٌ ليدفعه بالتفكير بنفسه، بل كانت هجرته بعد أن اطمأن على هجرة المسلمين إلى هناك قبله..

الخوف جاع وولى في حصار الشعب، وإن أكلوا الجلود وأوراق الشجر، فقد التفوا حول بعضهم على مائدة من الأخوة الإيمانية الصادقة، وحلاوة القرب من الله..

الشّدة التي جمعتهم قهرت الخوف وأرهبته حتى أذن الله بالفرج ليكون فوز بالامتحان..

الخوف أصابته حجارة الغلمان في الطائف، وما أصاب قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم بشيء.. رغم أن قدميه قد أدميت، فالمسألة هنا مسألة كرامة تشكل درعاً، تدفع المؤمن لأن يتابع رغم الجراح، لأنه موقن أنه يفعل الصواب.. يتابع ولا يقهره الخوف حتى وإن كان وحيداً طريداً..

الخوفُ قهره عدّاس... بعنقودٍ من العِنب!!

** ** ** **

الخوفُ أطل قليلاً في الغار.. في طريق الهجرة..

راود الصّديق وهو يرى المشركين يتتبعونهم..

" لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا. . "

فيأتيه الجواب هادئاً واثقاً تغمره السّكينة. .

" ما ظنك باثنين الله ثالثهما" ؟!

معيّة الله تزهق الخوف، تجعله يتلاشى، وتمد المؤمن بقوة يعجب لها. .

** ** ** **

على طريق الهجرة أيضاً يأتي سراقة، هدفه أن ينال من رسول الله ﷺ. .

وتقهر معجزة الثبات والرغبة الحقة بمواصلة الطريق حتى نهايته، تقهر الخوف، بل وتوجهه لمن قرر محاربة الله ورسوله وباشر بالتنفيذ، فيخيب عمله. .

مع قهر الخوف ينمو الأمل. . وتأتي رؤية المستقبل الواثق، لتبشر سراقة بالحصول على سواري كسرى. .

من وضع في حسبانه فجر جديد سيولد مع نهاية طريق الهجرة، أفلا يبشر سراقة بسواري كسرى؟!!

** ** ** **

وفي بدر كان الأمن على خط المواجهة مع الخوف في أول معركة يخوضها المسلمون ضد عدوهم مع رسول الله ﷺ. .

فنزلت الملائكة وقاتلت مع المسلمين، وغفت أعينهم ليرتاحوا وهم في محنة وشدّة... ونزل المطر طهوراً وطمأنينة ورحمة..

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾

** ** ** **

وفي أحد.. ورغم إصابته، ورغم الهزيمة الظاهرة، كان أثبت من الجبل، حين أمر الفاروق فنادى.. الله مولانا ولا مولى لكم..

ويوم الأحزاب، حين عصف الخوفُ بالقلوب، كان العمل على تحطيم صخرة الخوف بفأس الشجاعة واليقين بوعد الله وسننه الماضية في الكون.. فأتت البشائر على المدى البعيد بالفتوح، وأتى النصر القريب بريح كانت من جنود الله، وجهت الخوف سهاماً إلى قلب العدو فأرهبته..

ويوم حنين كان للخوف دورٌ في الهزيمة، ودورٌ في النصر، فالخوف على ضياع الدين دفع المسلمين للعودة وترتيب الصف، ومن ثمر صناعة النصر وتحقيقه بأيديهم..

** ** ** **

الخوف على الدعوة وألا تصل إلا إنسان كان من الممكن أن

تصله فيشرق في قلبه نور الإسلام دفعه لأن يراسل الملوك والأمراء، فيدعوهم إلى دين الرحمة..

الخوف في خطبة الوداع نطق حرصاً وتوصيات على الدم والمال المسلم، على هذه الأمة من أن تضيع..

"أما بعد، أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماء كم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تتقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلَّغتُ؟ اللَّهم اشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أن لا ربا، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب. وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد

أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله وسنتي؟ ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ر بكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ألا هل بلغت.. رسالة تأكيد تحمّل الأمانة كل من تلقّاها إلى يوم الدين.. ".

كان خوفه الراقي النبيل يصحبه ﷺ طيلة حياته، فأي نوع من الخوف نحمله؟ وماذا فعلنا وفاء بالوصية وتلبية للنداء؟!

** ** ** **

فإن محمداً قد مات

حين نطقها الصّديق ليعلم الأمة بوفاة رسول الله ﷺ، كانت تقطر ألماً، لكنه الحزم، والخوف من الزيغ عن الحق، أو الضياع. .

وحين قال مقولته الشهيرة في من منعوا الزكاة. . "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه". كان خوف الصديق شديداً، قوياً، طاغياً. .

وحتى قال بعض المسلمين لأبي بكر: "يا خليفة رسول الله. . لا طاقةَ لك بحرب العرب جميعًا، الزم بيتك، وأغلق بابك، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"، ولكن هذا الرجل يصيح في وجه عمر: "أجبَّار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟! لقد تم الوحي واكتمل. . أينقص الدين وأنا حي؟! والله. . لو منعوني عقال بعيرٍ كانوا يؤدونه لرسول الله- ﷺ- لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف بيدي).

خوف من ألا تطبق شريعة الله، وأن يستهان بالفرائض. .

خوف من ضياع الحقوق والاستهتار بها. .

خوف دافع لئلا تأخذه في الله لومة لائم. .

خوف حكم المسيرة كلها، وضبط البوصلة، فكان السير على الحق هو الأساس والمنهاج. .

وسار على ذلك الخلفاء الراشدين، عاملين بأحكام الدين مطبقين لشرع الله، آخذين الكتاب بقوة. . فكان التأسيس للمجتمع الإسلامي على خير وجه. .

غير أن الأمور تبدلت في عصور لاحقة، ولأسباب كثيرة أصبح الخوف على الحكم والخلافة والكرسي هو الأساس. .

وأصبحت السلطة هي القِبلة التي تتوجه إليها الآمال والمطامع. .

وبدلاً من أن تكون بوابة الأمان، باتت مصدر الخوف. . والكرسي أداته. .

غياب الشورى والأخذ بحكم الله والسير على منهاج النبوة أدت لتفاقم الوضع، والرضا بالخلل، والقبول بالأدنى، وتغييب النقد، فتعطلت آلة الإصلاح، وأدى ذلك كله إلا تراكمات كثيرة نعاني منها حتى يومنا هذا. .

** ** ** **

مفهوم الأمن والخوف في القرآن

وبالعودة للقرآن بحثاً عن مخرج مع الخوف. .

كثيراً ما يأتي القرآن بالعلاج والحل الفعال ضد الخوف المزلزل، والخوف المقعد، والخوف الذي يورث الشلل. .

حلول القرآن كالعادة عمليّة، وليست نظريّة، توجّه نحو الصّواب، وتتطلّب العمل على تحقيقه، تعالج المشكلات من الجذور، تُدعّم الأسس، وتنطلق منها إلى بناء صرح متين متكامل. .

● بداية تعزز الآيات أهمية توجيه الخوف لمن يستحق أن يُخشى، للملك القويّ، للجبّار المنتقم، للقهّار، للعليم، للحكيم، لمالك المُلك. .

ويأتي الخوف مع الدعاء، لأنه أدعى للإجابة، للتقرب من الله، بعيداً عن كبر النفس، بل هو إشعار لها بضعفها، هذا الضّعف بين يدي الله تعالى هو الكفيل بشحذ الطاقة، ومنح القوّة. .

تماماً كما تُعطفُ كلمة الخوف على كلمة الطّمع، ليغدوا بمسارٍ واحد لا ينفصلان أبداً. .

ليشير القرآن إليك. . أن ارفع يديك، اطلب حاجتك واستشعر ممن تطلبها لتقترب منه عبر خوفك منه وثق أنه سيعطيك. .

﴿وَادْعُـوهُ خَـوْفـاً وَطَمَعـاً إِنَّ رَحْـمَتَ اللَّهِ قَـرِيبٌ مِّنَ الْمُحْـسِنِينَ﴾ الأعراف- ٥٦

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ السجدة- ١٦

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعـاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ الأعراف- ٢٠٥

● يشير القرآن مع الخوف إلى مفهوم الأمن.. فيأتي الوعد للمؤمنين بجائزة عظيمة لمن نجح في اجتيازه، لمن صنع من مرحلة الخوف خطوة نحو الارتقاء..

قال تعالى: ﴿وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً..﴾

فلولا الخوفُ ما عُرف الأمن، ولولا الإيمان بوعد الله تعالى لماتت الرّغبة بالعمل والإنجاز، ولاختلطت مفاهيم الحق والباطل وتميّعت، ولأصبح من المستحيل الخروج من ظلمات الخوف إلى نور الأمن والحرّيّة..

"يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً" ..

العبادة الخالصة لله وحده هي الركيزة والمنطلق، على أن يُفهم معنى العبادة، كأهم محطّة للتّزوّد بالطّاقة..

انطلاقاً منها لنشر الخير والعدل والإيمان في هذه الأرض...

** ** ** **

والأمن هنا لا يرتبط معناه بشيء مما نشرته الدول المستبدة

حين عكست مفهوم الكلمة في الأذهان، وربطتها بأجهزة القمع والإرهاب الخاصة بالدولة.. والتي تتخصص بالتعذيب وقمع الحريات..

الأمن.. هو السكينة المطلقة للنفس.. روحٌ مستقرّة قادرة على مواجهة الظروف الصّعبة، واجتياز الأزمات القاهرة..

الأمن.. روح من التفاهم تسري بين البشر، لا يطغى فيها أحد على أحد، ولا يظلم فيها أحدٌ أحداً..

ولا حق لأحد أن يبسط سلطته على الأفكار، ولا يُحجّمها، ولا يُرغم الآخرين على الإيمان بها إن كانت تخالف قناعاتهم....

الأمن.. حبٌّ موسوم بصفة الخير، أو لغة فريدة من لغاته، تفتح آفاق العقل ليتبصّر، وينتج، ويُنجز...

مهما كانت العقبات والصّعاب...

الأمن.. صلحٌ مع النّفس، ينعكسُ صلحاً مع الله، وأثراً طيباً بين الناس..

الأمن.. إنسان أقسم أن يتعلّم في مدرسة الحياة إلى الأبد..

الأمن.. طفلة تعانق دميتها بهدوء دون أن تلاحقها كوابيس أسرة مشتتة، أو مشهد وطن منتهك، أو آلام قلب لعاطفة مفقودة..

الأمن.. فكرة تنطلق، لتبني وتنهض وتعمر.. دون أن

تلاحقها الدوريات.. دون أن تُستدعى للتحقيق، دون أن تقضي في أقبية التعذيب..

الأمن.. أيد تتكاتف، لأنها تعلمت دروس الماضي أن لا نجاة إلا برصّ الصّفوف وتوحيدها، والتوجه للقبلة..

إن شجرة غرسناها ورعتها عين الله لابد ستثمر.. ما دمنا نسقيها معاً.

ما دمنا نفهم بعضنا، ونتبادل الأفكار والأحلام والمشاعر والطموح.

الأمن.. بيئة صالحة للإنتاج تختفي فيها كل أدوات الظلم..

وقيمة التعامل الرئيسية هي الرّحمة.. " رحماء بينهم" .

"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.." .

** ** ** **

● كما يأتي الخوف في القرآن بمعنى الخشية..

قال تعالى: ﴿**أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه**﴾

خشية الله التي تنزع الخوف، هي تلك تدفع للمحاسبة، والمحاسبة تقتضي فهم ما تملكه، وما أنتَ قادر عليه، وتفعيل الطاقات بالشكل الصحيح وفق ذلك.. لتفهم حجم تقصيرك..

خشية الله ليست فقط أن تتباكى على ذنوبك وتعتقد أن المسألة قد حُلّت وانتهى الأمر، بل بترجمة صدق الدموع إلى

العمل وإصلاح الخلل، وعلى قدر الندم الحقيقي على الإساءة والتقصير يُتقن العمل..

وهي بالتأكيد ليست فجوة من فراغ يحدّق فيها الإنسان باللاشيء، بل أفق واسع يقوم بها على الحق، ويؤتيه من نفسه وقدراته كل ما يملك..

بالتأكيد إن من يقوم بهذه المهام ستتشكل ثقة كبيرة في نفسه، تنزع عنها خشية العدو، لأنها قويت بالله جل جلاله، وبطاعته والاستجابة لندائه..

** ** ** **

● وفي القرآن تأتي البشائر للخائفين المحزونين الذين قرروا أن يكون بيعهم مع الله..

قال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون**﴾..

القاعدة واضحة..

إيمانٌ يستقرّ في القلب، إعلان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم عمل، واستقامة على الطّريق..

رغم العثرات، ورغم العقبات، والصعوبات والمنغصات... ومهما ساءت الأحوال..

لا شيء يستدعي الزّلل، حتى وإن قرّر العالم كله الاستغناء

عن إيمانه، فالمؤمن حيّ القلب ثابت، مهما رأى من بطش ومن جبروت، مهما كان حشد الطغاة ليردّوه عن دينه، مهما أوحش الطّريق، وكثرت الفتن، وأحسّ بالغربة تعصف بقلبه، حتى وإن واجه العالم وحده، هو في داخله يؤمن يقينا أنه على الحق.. وأن من كان على الحق ومعه فلن يضيعه الله أبداً..

إيمان + استقامة = أمن وسكينة + بشارة بالجنة..

توحي الآيات بمشاعر الغرباء، وما يعتريها من الخوف والحزن، تخبر أنهم قلّة، ولكنهم سيفوزون رغم ذلك..

شعورٌ باليُمن والعِزّة، والحبّ العميق لله تعالى الذي يرعى تلك القلوب المتألمة الحَزينة، فيرسل عليها ملائكة.. يجندها خصّيصاً لتقوم بمهمّة التثبيت..

فلا خوف لمن كانت معية الله تصحبه، ولا حزن لمن تكلل عمله بالبشارة الغالية..

** ** ** **

خَوفٌ وأمَان

رفعتُ رأسي عن أوراقي بعد طول تأمل.. وصرخت حينها..

- وجدتها...

- لكنني غير مقتنع بما وجدتِ..

- نزالنا القادم عند الجبهات.. أتوافق؟

سكت قليلاً ليفكر.. شعرت بتردده... ثم قال بشيء من الثقة..

- موافق!!

الفصل الخامس

في الخنادق

الفصل الخامس

في الخنادق

- آسفٌ إن اعترضتُ طريقكِ لكنني لازلتُ غير مقتنع بفكرة اللقاء..

- لماذا قبلت؟

- أردت أن أثبت لك أنني لا أخاف!

- وأنا أريد أن أثبت لك أن لديك هويّة مختلفة كل الاختلاف عمّا تعتقده عن نفسك..

لا تتسرع بالإجابة..

** ** ** **

سأخبركَ أمراً..

دار حوار بيني وبين أحد الشباب المجاهدين الذين تزوجوا حديثاً ورزقوا بمولود، قال لي يخبرني عن صغيره الذي لم يبلغ الشّهر بعد..

- أتعلمين يا أمان، لقد أحببته وتعلّقت به تعلّقاً شديداً،

فأصبحت كلما هممتُ بالخروج لمهامي وأعمالي، شعرت بقوة ذلك الحب والرغبة الشديدة بالبقاء معه..

سألته..

- وبعد مرورك بقوة ذلك الشّعور أكنتَ تخرج أم لا؟

بهدوء وثقة قال..

- كنتُ أخرج..

- ذاك هو الامتحان.. أن يتعلّق قلبك بشيء حتى تشعر أنه كلّ حياتك، ثم تأتي الموازنة والمفاضلة، بين حبك له وللبقاء معه، وحبك للجهاد والعمل للأمة..

- لكنه صعب..

- صعبٌ جداً.. لكن القيام به يهبك من القوّة الداخلية والطمأنينة ما لا تحتسب..

إلى الآن أتابع ما يكتب عبر صفحات التواصل الاجتماعي، بعد نزول أي صاروخ قرب منزله بلحظات.. فأقرأ بين السّطور خوفاً على البطل الصّغير.. وأقرأ معها الأمان بالله والاطمئنان به... أخافُ من خوفه، لكنني لا ألبث أراه في صبيحة اليوم التالي قائماً على عمله بكل همّة وجدّ وإخلاص...

فهل يُقهرُ الخوفُ إلا بمزيد من العمل مع الثبات، والصبر على الآلام والمحن؟!

** ** ** **

- تريدين قهري إذن؟؟

- أريد قهر الجانب المظلم منك، أريد أن تركز على النور..

- تتحدثين كلاماً لا أفهمه أحياناً..

- ستفهمه ذات يوم..

** ** ** **

الشيطان وأولياؤه..

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٧٥

قال لهم الناس إن أناساً قد جمعوا لهم وحشدوا، وإن العالم تآمر عليهم، وقرر النيل منهم، حاولوا إقناعهم أن لا سبيل إلى الخلاص.. فارتاعت قلوب فريق منهم.. لأن المواجهة صعبة، والقتال كره، وهمٌّ ثقيل..

عند الأزمات تتصعّد مشاعر الناس عموماً، يأخذهم الخوف والقلق نحو أوهام كثيرة، يُشعرهم أن عدوّهم أقوى، وبأنهم ضعفاء جداً، لا يستطيعون المواجهة أو الصمود.. فالتنازل والخنوع هو الحل الأوحد..

لكن للمؤمنين مع مولاهم حكاية أخرى..

حكاية ارتباط وثيق، حكاية حب مختلفة، ومناجاة من نوع فريد..

لم يزدهم تخويف الناس لهم إلا ثباتاً وقوّة، لم تلهج ألسنتهم بـ "حسبنا الله ونعم الوكيل" من فراغ..

بل ترسخت في قلوبهم قبل ذلك، آمنوا وسلّموا أن الله تعالى معهم يمدّهم بالقوة، ويستغنون به عن كل من سواه، يمدهم

بالإيمان فيصبح كل واحد منهم مستعداً للمواجهة. .

فيكون الثبات والإيمان هو السبيل الموصل للنجاة. .

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ - وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران: ١٧٤

تلك هي الحكاية، والعبرة في طريقة الاستجابة لتخويف الشيطان، وتحكيم العقل المرتبط بالإيمان. .

فمن يأخذ تخويف الشيطان على محمل الجد فهو من أوليائه، ومن هنا يأتي التحذير من الإصغاء للمثبطين الذين لا يرون من الواقع إلا صورته السوداء القاتمة، تماماً كما أن البناء على تفاؤل مغرق بالسذاجة وغير مبني على أسس قويمة هو من عمل الشيطان. .

إذ لابد في كل الأمر النظر إلى الإعداد الحقيقي، ودراسة الواقع ومتطلباته، ثم الإقدام بخطى واثقة، مع المثابرة على العمل ورفع الهمم، وتجنيد الطاقات وحشدها، وتحفيز العقول للتطوير والإبداع، وربط ذلك كله بالثقة عليه والاعتماد على قوّته. .

** ** ** **

إن عدم الإصغاء إلى تخويف الشيطان من مواجهة العدو، لا يعني بشكل من الأشكال ألا تُعدّ العدّة، وألا تُحسب الحركات والسكنات، وألا تدرك نقاط الضعف والقوة. . بل هي أمور تتكامل. .

مع أن يقوم الجميع بكل ما وسعهم في سبيل مواجهة عزّة، يتم القتال فيها ليردع ظلماً ويقهر ظالماً ويحفظ دماء وأعراض المسلمين، بوقفته المحسوبة تلك، ووضعه حداً لامتداد وتمادي أعداء الله، ولإحقاق الحق قبل كل شيء.

** ** ** **

عند المواجهة مع العدو أنت بين خيارين، أن تخشاه وتخافه، فتتولى عنه يوم الزحف..

أو أن تتقدم بكل ما أوتيت من عزيمة مستعيناً على ذلك برصيدك الإيماني الذي تشكل من كل خطوة في حياتك أتيت بها إلى الله.. وقلبك خائفٌ من تقصير في حقه، من إحداث خلل في تطبيق أوامره..

وفي كل خفقة لقلبك تزداد يقيناً.. ﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾.

في الحياة معارك أخرى يحشد لها العدو ويعدّ عدّته..

معارك فكريّة، ومعارك سياسيّة ومعارك علمية واقتصادية..

ما نراه على السطح حشد العالم لنا وجمعهم لقتالنا.. فماذا جمعنا نحن؟ ولأي يوم أعددنا وعملنا؟ وما هي خطتنا للمواجهة بثبات وثقة؟

وأخيراً.... ما أخبار الرصيد الإيماني؟!!

الشيطان يخوف أولياءه، ولكنه كان يلوذ بالفرار حين يسلك

الفاروق عمر رضي الله عنه فجاً ما..

هذا الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان..

أولياء الرحمن لا تجد للشيطان عليهم سبيلاً إذ أن قلوبهم معلقة به، وهو سبحانه أحد صمد لا شريك له.. يوقنون بذلك في نفوسهم كل اليقين، يقضون أعمارهم على هذا الأساس، واثقين ثابتين، لا تزلزل خطواتهم في الحياة رهبة ما داموا قد نذروا حياتهم لله كاملة..

"والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك".."

** ** ** **

● رعب العدو أيضاً مصدره ضعفهم، وقوّتنا..

كلما ازداد رصيدنا الإيماني، واقتربنا من الله أكثر، ازدادت هيبتنا في قلوب العدو، وازداد ضعفهم..

قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ الحشر: ٢.

وقال تعالى: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ - بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ - تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى -**

﴿ذَ?لِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ الحشر: ١٤

الأمر يتوقف على همة ومبادرة وعمل، ليكون أثره، قذف الرّعب في قلوبهم..

يُرعبهم أن تستفيق من الرقاد وتتحرك، وتبدأ العمل بجد..

أيّة حركة للماء الرّاكد ترعبهم، لأنه يقوم بها مسلم صاحب عقيدة، يمده إيمانه بقوة كبيرة مضاعفة، تزلزل الظالم وتشعره بالخطر المحدق، إذا ما استيقظ الإيمان في النفوس فتبصرت السبيل..

ترعبهم خطوة في الاتجاه الصحيح، لأنها كالدوائر الناتجة عن إلقاء حجر في الماء، تؤثّر وتبدأ رحلتها في التّغيير..

يُرعبهم الإعداد لأنه قوة، وهم يريدون أن نبقى بلا إرادة، فإن أعددنا قويت شوكتنا واستطعنا المواجهة..

يرعبهم رصّ الصّفوف، تنقية المجتمع من الشوائب..

المبادرات الصّادقة العملية في رفعة الأمة..

يرعبهم أن نكشف نقاط ضعفهم فنباغتهم، وأن نسود..

وأن يحفزنا لذلك تمسكنا بهويتنا أكثر..

يرعبهم أن نعرف الله أكثر وأكثر..

وأن نبدأ الإصلاح من أنفسنا وينعكس ذلك على أمّتنا، وأن نشرق في ظلماتهم نُـوراً..

وأما نحن.. فأي شيء سيرعبنا إن نحن عرفنا السّبيل؟!!

** ** ** **

خَوفٌ وأمَـان

حان الموعد للّقاء، وأنا في أقصى درجات التأهّب. .

هنا على جبهـة القتـال يتسـرب إليكَ شعـورٌ غريبٌ بعـدم الخوف. .

تتحسس قدميكَ. . وتحاول تجديد النّيّة من قدومك. .

تتـوارد آياتٌ وأحاديثٌ كثيرة إلى عقلك وتفكيرك، تستحوذُ على كيـانك، تمدّك بقـوّة عـجيبـة تدفعك لأن تقـاتل وأنت ثابت القلب. . لا تعـرف للـخوف سـبيـلاً، حـتى وإن كـانـت المسافـة الفاصلة بينك وبين عـدوّك أمتار قليلة. . حتى وإن سمعت حديثه وتهـديداته وصرخـات غـضبـه، فـأنت تحـاول أن أن تسـمعـه أيضـاً حديثك، رسوخ قدميك في أرضك، إقدامك وقرارك ألا تعود إلا منتصراً بإحدى الحسنيين. .

** ** ** **

- منذ متى وأنتِ تنتظرين؟

- ليس من عادتك أن تأتي دون مفاجآت. .

ابتسم ولم أرتح لابتسامته. . وبكل الأحوال بحثنا عن خندق شبه آمن للاحتماء به إذا اندلعت جبهة القتال فجأة. .

قال واثقاً. .

- كان عليكِ أن تُظهري شجاعتك وعدم خوفكِ على أرضهم وليس على أرضكِ. .

- لكننا الآن نحن وهم في مكان واحد، والغلبة للأقوى. .

قهقه ضاحكاً. .

- بعد أربع سنوات من ثورتكم الفاشلة تتحدثين بمنطق القوة؟

- ما كنت يوماً لأشعر بها أكثر منّي اليوم!

- ما الذي يجعلكِ واثقة، متفائلة إلى هذا الحد؟ هل هناك اتفاقيات لا أعرفها؟ جيوَشٌ لا أراها؟ أسلحة لا ألحظها؟ دعينا لا نكذب على بعضنا، ولا يخدع بعضنا بعضاً. . لقد استهلكتكم الثورة حتى النخاع. . قطفت زهرة الشباب والفتيات فيكم، اغتالت أصحاب العقول والطاقات التي كانت تدفعها إلى الأمام، وهجَّرت البقيّة. . جعلتكم في شقاق دائم، وخلافات لا تنتهي، وشكوك مستمرّة بكل شيء. . أيقظتٍ الجشع والطّمع في نفوس كثيرة، وزادت حجم المتسلقين عليها، والمتنفعين منها. . . باختصار. . لقد أكلتكم الثورة. . وأهلكتكم. . هل أنا مخطئ؟

- إلى حد ما في كلامك صواب. . سأعترف بذلك. . وسأواجه الحقيقة كما كنت أفعل دائماً مع نفسي ضمن رغبتي في تحليل الأمور بشفافية دون خداع. . لكن. . أرجو أن تلقي نظرة إلى الشاب الذي يحمل السلاح في المبنى خلفك، ويقف بهدوء خلف المتراس الرملي. . وهو مستعد استعداداً تاماً للموت في أيّة لحظة. .

أيّ شيء قد أبقاه في مكانه رغم كل التغيرات التي ذكرتها؟

دعنا نعترف - ومن باب الموضوعية والحياد أيضاً - أننا ثبتنا ونحنُ الذي خرجنا في البداية عُزّلاً من كل شيء.. وليس من السّلاح فقط..

عزّلاً من فهم خطورة المعركة وعمقها وأبعادها وحجمها، وقوى العالم التي تتربّص بنا، والتي تقفُ أنت مسانداً لهم ضدّنا..

رغم عقود من التعتيم وسيطرة الجهل والجمود والقهر وكل محاولات قتل الكرامة في النفوس خرجنا.. وكانت ثورتنا هي ثورة الكرامة واستعادتها..

لقد تطوّرنا كثيراً، وبشكل إيجابي عن المرحلة الأولى، وفهمنا واقعنا أكثر، واستطعنا التفوّق على أنفسنا في كل شيء..

لا أتحدث هنا عن التقدم في تصنيع السّلاح مثلاً، ولا عن حفر الأنفاق المدروسة والمتقنة، لا أتحدث عن عدد الكتب العسكرية والفكرية والإدارية والكتب الفقهية والنفسية والطّبّية فحسب، بل على ما تم تطبيقه رغم العثرات، وما انعكس على الأرض المُتعَبة من خيرات.

التعليم لم يتوقف، ولا مشاريع الثبات في الأرض رغم خطط الحصار والتهجير الشيطانيّة، فهم الواقع والمجتمع ومشكلاته وسبل العلاج باتت أعمق.

الحركة التوعوية الإصلاحية رغم تكرار الفشل أخذت تشق لها طريقاً واثقاً إلى النجاح. .

وعوضاً عن الكفاءات التي غادرت أو التي اعتقلت أو استشهدت، أخذنا نبني كفاءات جديدة، نشقّ الصّخر مهما تعبنا وكلفنا ذلك من ألم. .

ليس الأمر ورديّاً، لكنه ليس قاتماً إلى هذا الحد. .

- كفاكِ حلماً وتفاؤلاً(٩) لا طائل منه. . لا أراكم إلا تتخبطون في الظَلمات، تصارعونها فتصرعكم. .

- لسنا أول من واجه الظلمات ولن نكون آخرهم. . ولكن. . ألا تلاحظ؟

- ماذا؟

- إنه أطولُ وقت أصغيتَ فيه إليّ منذ تعارفنا. .

- هذا صحيح. . لم أشعر بمرور الوقت. . المكان يُشعر بالراحة على عكس ما ظننت. . لقد قاتلت على الجبهة المقابلة. . جبهة أعدائكم ولم ينتبني هذا الشّعور. . .

- هذا لأن هذه الجبهة مختلفة عن البقيّة. .

- من أية ناحية؟

---

(٩) لتفاؤل: حالة من الغبطة ناتجة عن سهولة التكيف مع الحياة.
والتفاؤل الواقع ناجم عن توازن جسمي ونفسي جيد وعن تخلص من كل ما يمكن أن يسبب الاضطراب لسلام الذهن. إنه يقوي العزيمة ويجعل الإنسان متألقاً: إنه لصاحب فضل على الإنسانيّة.

- هؤلاء الشباب خرجوا لرفع المظالم، ونصرة الحق، فهموا أن عدوهم واحد، فقاموا لينصروا الله، لا يريدون سلطة ولا سيادة. . هم يعلمون أن خلاصهم في إخلاصهم. . .

- مساكين. . سيضيع جهدهم في ألاعيب الكبار ومخططاتهم. .

- سيتعلمون من أخطائهم وينسجون مستقبلهم بتضحياتهم. .

- لكن. . اعترفي. . هم أيضاً يخافون. .

- أمرٌ طبيعي أن يخافوا. . ولهذا شُرعت صلاة الخوف. . . صلاة قد نسيتَها ربّما، لكنها من أسلحتهم الفتاكة في المعركة. . .

- لا أفهمك. . ولهذا سأغادر. . .

- ستفهمني ذات يوم. .

** ** ** **

صلاة الخوف

لأن سلطته قويّة، وقد تكون قاهرة، مؤثرة، دافعة لاختلال القلوب واختلال الصّفوف في الحرب..

شُرعت صلاة الخوف رحمة بالمؤمنين المجاهدين..

يقسم بها الجيش المحارب إلى قسمين، قسم يحرس، والآخر يصلي..

يصلي الإمام بالطائفة الأولى ركعتين ويسلم بهم، ثم يصلي الإمام بالطائفة الثانية ركعتين ويسلم بهم فتكون للإمام أربع ركعات، ولكل طائفة ركعتان..

الإمام إذن يتحمل المسؤولية مضاعفة، يحمل الهم الأكبر، يتقدم الصفوف، يكون في المواجهة والصدارة، يتحمل المدة الأطول ليحمل الجيش عبر الصلاة.. عبر الصلة الحقة بالله، إلى روح جديدة، إلى عمق إيماني، إلى ارتباط وثيق بالله تعالى، ما كان ليتحقق إلى بوجود هذا الإمام القوي القادر على حمل الثقل، والتصدر في المعركة، والصبر، والشجاعة، والقدرة على التمتع برباطة الجأش في أكثر اللحظات شدة.

هكذا شرعت صلاة الخوف، لتنقلك في شدة الأزمات وتفشي الكرب إلى السكينة والطمأنينة التامة عبر الارتباط الوثيق بالله تعالى..

ومن صفاتها:

- أنه لا يشترط فيها استقبال القبلة..

القبلة واضحة في القلب، الوجهة واضحة، الطريق إلى الله آمنة ولو كنت محفوفاً بكل أنواع الأسلحة.. لا اتجاه يقيدك وأنت تقاتل.. أنت تصلّي.. كل كيانك وروحك وقلبك متوجهين إلى القبلة، وأنت تقاتل الخوف بمجرد البدء بتكبيرة الإحرام..

- أن يكونوا قبالة العدو..

يرونكم وترونهم، ومع ذلك، فرؤيتهم لكم لا تعني لكم شيئاً ما دمتم أعددتم عدّتكم وكنتم مع الله..

هذا المشهد الذي أثّر بخالد بن الوليد رضي الله عنه قبل إسلامه، وبقي محفوراً في ذاكرته حتى أسلم وكان من أسبابه..

وهذا المشهد سيبقى محرّكاً للعقل الإنساني قبل أن يحرك القلب..

لأن وقفة كهذه في أرض المعركة، قبالة العدو..

الركوع والسجود، التكبير والتسبيح.. المتابعة للإمام بأروع أشكال التنظيم، مع التعلق التام بالله تعالى، مشهد يثير التساؤل..

أيّ دين هذا الذي تثبت به الأقدام إلى هذا الحد؟

كانت الأمم السابقة في حروبها تربط المقاتلين بالسلاسل في أرض المعركة، لترغمهم على المواجهة، وعدم الانسحاب..

شتّان بين ذلك كله وبين جدائل النور التي تربط القلوب بخالق الأرض والسماء. . . تدفعه للانسحاب إلى الأرض أكثر، والدفاع عنها بهمة أكبر، واستمداد القوة في ذلك كله من الله تعالى وحده. .

- يجب حمل السلاح في الصلاة. .

لأنه الأداة التي خرجت تدفع بها ظلماً، وتدافع بها عن الحق، لأنه مرتبط الارتباط الوثيق بالصلاة، حتى صار جزءاً منها على أرض المعركة، فلا استهتار بالدماء، وحفظ دم المسلم والحفاظ عليه هو الأغلى. .

لذلك فأنت تحمله، وأنت بين يدي مولاك، لتخبره لمَ تحمله، وهو شرع لك أن تحمله، وأنت بين يديه، لتفقه لماذا تحمله؟ هل ليقال حملته؟ أم لأن له مهمة أعظم وأغلى؟ مهمة مقدسة، عبادة من نوع فريد، لها ضوابطها وقوانينها. .

- إن حمي وطيس المعركة ولم يتمكن الإمام من جمع الصفوف يصلّون فرادى حسب حالهم، إلى القبلة وإلى غيرها، يؤمون بالركوع والسجود قدر استطاعتهم وصلاتهم صحيحة. . لقوله تعالى: " فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً " . والرجال جمع راجل، والركبان جمع راكب. . وكذلك فإنه يجوز تأخيرها عن وقتها. .

وهذه هي المرونة في الإسلام، التي تتماشى مع الواقع ومتطلباته وظروفه. .

لا تشدد وتنطع أعمى يسبب الخسائر في الأرواح أو الأموال، ولا تنازل أو تخلٍّ عن الصلاة التي هي عماد الدين، والتي هي مصدر القوة والطاقة في المعركة ككل، بل في الحياة ومعاركها ككل..

- أن يبدأ صلاته خائفاً فإن أمن فيها أتمّها صلاة أمن، والعكس صحيح أن يبدأها صلاة أمن فإن خاف فيها أتمها صلاة خوف..

لكل ظرف مقتضياته، حتى في الدقائق المعدودة التي تتطلبها الصلاة، هناك نظام رائع، تابع لنظام إلهي في الكون، به تنتظم الأمور، حين يقوم عليها أجناد الله بالحق والانضباط والخير..

ولذلك هي ليست مجرد صلاة في لحظات خوف..

بل هي دعوة للجوء إلى الله تعالى وحده، والإئتمام بإمام واحد، وتحميله المسؤولية على القيام بالأمر في لحظات الشدة على خير وجه، وهي دعوة للتنظيم، وتوزيع الأدوار، وتوحيد الصفوف في لحظات أو تكفل كل شخص أو مجموعة بمهمة عند الضرورة، مع الارتباط الكامل في ذلك كله بالله..

صلاة الخوف بحد ذاتها دعوة للنهوض بالمفاهيم، دعوة لتمثيل الإسلام الحق الصافي، وتطبيق معانيه، ليس في مكان هادئ آمن، بل على أرض المعركة.. وفي قلبها..

لتُقلب الموازين.. ويفرض ميزان الحق نفسه فوق كل موازين أهل الأرض.

الفصل السادس

تربيتنا والخوف

الفصل السادس
تربيتنا والخوف

رسالة:

- لقد أخبرني مساعدي القلق أنك تنقّبين عن أصولي وجذوري.. لذلك أتمنى أن تفكري بالطريقة الصحيحة، وتفتشي عني لديكِ في عالمك.. وألا تتعبي نفسكِ بالعوالم التي انقضت وانتهى أجلها..

- شكراً للنصيحة ولكن.. سأقرر هذا الأمر بنفسي.. وأرجو أن تعلم أن هنالك عوالم لا تفنى أبداً..

** ** ** **

تربيتنا والخوف..

تعتبر السنوات الأولى من عمر الإنسان هي المؤسِّسة لبنيته النفسية والعقلية في مواجهة الخوف أو الاستسلام له، يُبنى على ذلك طبيعة تعامل الوالدين مع الأمور المُثيرة له، فكم من شخصيات ولدت وعاشت وماتت على وهم المخاوف وعدم الإقدام على أية خطوة إيجابية شجاعة نحو الأمام بسبب المخاوف..

الخوف أولاً من انطباعات عامة للمجتمع، تبدأ من لحظة الحمل، وتمتد مدى الحياة..

أولاً في كون جنس الجنين ذكراً أو أنثى..

يذكرنا ذلك بمريم البتول رضي الله عنها حين وضعتها أمها فقالت.. " رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى.. " ..

هنا تتلخص المخاوف العامة.. بأن الذكر ليس كالأنثى..

على ذلك تبنى المشروعات والأحلام وأساليب السعادة والشقاء..

فإن ولدت أنثى ولد الخوف معها، من حياتها ومصيرها، وكأن ذلك همّ عظيم وشرّ مستطير..

ولذلك أتى القرآن بسورة سمّيت سورة مريم، لتلقي الضوء

على هذه الأنثى التي جاءت برسول ملأ العالم عدلاً وإيماناً وخيراً. .

امرأة نُذرت لله، فتحول الخوف الذي وُلد معها إلى طمأنينة وسعادة وفخر إلى يوم الدين. .

وكما قهرت أم السيدة مريم خوفها من مصير ابنتها بأن نذرتها وذرّيتها لله رب العالمين، يمكننا جميعاً أن نستعمل ذات الوصفة الناجحة المفعول لنحول مخاوفنا إلى طاعات. . إلى مشاريع حياة. .

نخاف من الفشل فنصنع النجاح وننذر أوقاتنا وجهدنا وتعبنا لله، فيُنجز ويتحقق. .

نخاف السّقوط فنرتقي، ونمد حبال النجاة لغيرنا، كي نصعد معاً. .

نخاف الفتنة، فنعمق تمسكنا بحبل الله المتين، ننكبّ على العلم والعمل، ونعمّق علاقتنا بخالقنا فتتحقق العصمة. .

نخاف الزلل، فنقوّي الأعمدة، ليعلو البنيان. . . فتأخذنا درجاته صعوداً إلى الجنّة. .

تلك التجربة التي نجحت لحظة ولادة أنثى . . وتلك البذرة التي أزهرت. . فكانت امرأة من طراز فريد!

** ** ** **

ولنعـد إلى السنوات الأولى من العـمـر . . في رحلة مع الأنبياء . .

موسى وقـد عاد إلى أمه لتعتني به مـجدداً وإن اعتبروها مرضعته، فهو يعلم وهي تعلم أنه ابنها وهي أمه . .

عاد ليكتسب الأمن والأمان في حجرها، ولينشأ قويّاً مستقراً من الناحية النفسية والبدنية، قادراً على حمل الرّسالة .

ولننظر إلى شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلّم، وقد احتضنته حليمة السعدية، وقد أرسلته أمه في السنوات الأولى من عمره إلى البادية، ليكتسب القوة البدنية واللغوية والمعرفية والقدرة على التحمل، والفطرة النقية . . فنجده قادراً على أن يصمد رغم حادثة شقّ الصّدر، وليصفها بأفصح بيان . .

ولنتأمّل مشهد الحسن والحسين يصعدان إلى ظهر جدهما محمد ﷺ وهو يصلّي، فيتابع لا يزجرهما أحد، ولا يمنعهما من لعبهما الطفولي البريء مانع، مما يعودهما على الانطلاق ويثبّت في قلبيهما حبّاً وسكينة وطمأنينة لا مثيل لها . .

وها هي فاطمة الزهراء تأتي إلى أبيها فيستقبلها ويقبّلها ويفسح لها في مجلسه، فلا تمنعها مشاغله من مجالسته ومحادثتها ليمتلئ قلبها بعاطفة الحب، مما يشكل الاستقرار والشخصية المسلمة السوية القادرة على الإنتاج والبناء . .

ويتجلى ذلك في حرص النبي ﷺ على التبسم للأطفال والتعامل معهم بألطف وأرقى وسيلة، وهو مدركٌ ﷺ أنه يبني

جيلاً قائداً سيفتح مشارق الأرض ومغاربها . .

** ** ** **

وفي عصرنا هذا يهمين الخوف منذ لحظة الولادة وحتى الوفاة، لا يفارق أصحابه أبداً . .

الخوف المرتبط بالمادة وأساليب العيش المستوردة، الخوف المجرد عن الإيمان، المرتبط بالأمور الشكلية والسّطحية . . والتي تُرضي عادات المجتمع وتقاليده وأفكار الآباء والأجداد أو أفكار الغرب بحذافيرها، لينمو الأطفال وهم في اغتراب حقيقي، وهشاشة في الشخصية، وبعد كبير عن ما يقوّيها ويقوّمها . .

وليؤخذ النص الديني - إن أخذ - بظواهره . .

فيعيش الطفل على مشاهد الخوف عبر الأفلام والمسلسلات العالمية المبثوثة على عدد هائل من القنوات، ليلتقاها بكل حواسه، ضمن ما تتلقاه من اهتمام وترويج . .

لنجد الخوف يتحول إلى عنف ورغبة لا شعورية بالدفاع عن النفس، فيقوم بالهجوم والاعتداء على أقرانه، وينعكس ذلك على المجتمع ككل، مع مواكبة ذلك كله بفقدان قيم الرحمة والمحبة والتسامح في التربية سواء كانت تعليماً أو اقتداء وتطبيقاً، ولا قيمة لواحدة منها ما لم تكملها الأخرى فتحظى بالاهتمام اللازم والضروري.

ومع ازدياد عدد سنوات العمر، يفاجأ الطفل بحديث "

واضربوهم عليها لعشر . . "وذلك عندما يبلغ العاشرة من عمره، دون تمهيد أو مقدمات، دون بناء إيمانيّ تربويّ مسبق، دون ربط حقيقي بالله تعالى . .

فترتبط الصّلاة في ذهنه بالعقاب والتخويف والضّرب . . ويرتبط تركها فقط بالنّار، ويُمحى التّرغيب من قائمة العمل لدى الأبوين . . ويظنان أنهما يحسنان صُنعاً . .

ولهذا تتشكل الفجوة سنة بعد أخرى . .

إذ لا ارتباط حقيقياً بعماد الدين، لا فهم جوهري لحقيقة حركاتها وسكناتها، ولا لأسباب البدء بالتكبير والختام بالسّلام . .

الصلاة لمجرّد الصلاة فقط، لإطاعة الأوامر، لعدم دخول النار . .

وفي كل ذلك لا تَطَرّق للجنّة، ولا للسبيل الموصل إليها، ولا إلى . . "أرِحنا بها يا بلال . . " .

ولا باعتبارها المركز الحقيقي والأساس الذي تبنى عليه حياة المسلم ككل ومنهاج حياته . .

ذلك الفصل الشديد والبعد عن جوهر الدين وحقيقته في التربية أدى إلى جيل مهزوم من الداخل . . يؤدي الفرائض بوازع الخوف - في حال تأديتها ?ولا يعرف عن شعور الحب ولا عن الإيمان الذي يغمر القلب نوراً، ويحفّز كل خلية للعمل في سبيل الله . . لا يعرف عن ذلك كله أي شيء!

لتتابع بعد ذلك المدرسة والمؤسسات الدينية والاجتماعية المهمة في استمراريّة الهدم، ليُشلّ الإبداع، وتموت الإرادة، وتحصل الفجوة بين الدين والتطبيق، بين النظرية والواقع، بين الشّكل والمضمون. . .

** ** ** **

إن تكرار الخوف، وإحاطته لعالمنا، دفعت كل إنسان للعيش تحت تهديده. . مما أورَثَ شللاً حقيقياً في العقل وفي القلب وفي الرّوح، ومما أحدث ?مع مرور الزّمن ?شللاً في الضّمير، حين افتقر إلى التمييز بين الخطأ والصّواب، والحق والباطل. . فالخوف ألبس الفكرة غير لبوسها، ودفع للتبرير للأفعال الخاطئة والشائنة تحت مسميات كثيرة، مما سهّل على الطغاة أن يوطّدوا لحكمهم، فالبيئة صالحة للاستيطان وفرض السيادة دون ناقد أو رادع أو معترض أو مواجه. .

فثقافة المجتمع قد اعتادت على الصّمت والسّكوت، والسّير قرب الحائط، وعدم التجرّؤ على السّير في وسط الطريق، مما يجعلنا نذهل حين نجد غلاماً يقف في طريق الفاروق عمر بن الخطاب، ويجيبه عن سؤاله لماذا لم يبتعد كما فعل البقيّة فيقول:

ها هو الإنسان القوي الشّجاع الجريء بالحق، الذي يقف ليكون دعامة على طريق الإيمان، ولا يولّي هارباً، كما يفعل الشيطان مع الفاروق وهو يسلك فجّاً آخر ليتحاشى مروره. .

هذا الغلام المؤمن يقف في عرض الطريق ويقولها بكل ثقة..

لأن إيمانه حفّزه لأن يثبت، لأن يواجه بالحق، لأن يكون جريئاً.. لأن يقهر الخوف وإن رآه يعصف في قلوب الجميع.. فالإيمان علمه الأعزّ والأغلى..

** ** ** **

ومن ثقافة الخوف ما فُرض في المؤسسات التعليميّة..

خوفٌ من الحاكم حين يُفرض مديحه وتعلّق صوره فوق رؤوس المسؤولين، وتُبتدأ الدروس والمناهج بأقواله ويتغنى بها..

وخوفٌ من أيّ مسؤول ابتداء بالمدير وانتهاء بمدرّس المادة التي توصل أفكار الدولة بمعزل عن قيم الدين.

خوفٌ من الفشل، خوف من إمكانيّة عدم النجاح، خوف من أن يحطم فارق علامة واحدة أحلام عمر كامل.. خوف من أن ينجح ابن المسؤول ويرسب الطالب المكافح بسبب تعاطف الأستاذ مع الأول أو حتى بسبب خوفه منه!

وخوفٌ من النجاح أيضاً..

لما يترتب عليه من نفقات ومتطلبات مادية، تجعل الأحلام في مهب الرّيح، ويغدو العيش في الواقع صخرة يصعب تجاهلها أو تحطيمها أو اجتيازها.. ليستمر الخوف مدى الحياة حتى من الخوف نفسه!

** ** ** **

ضمن ثقافة الخوف كان عمل المؤسسات الدينية يندرج تحت إطار السّلطة، والولاء الكامل لها، مما أدّى إلى التحجّم والتأطر بإطارها، أثّر ذلك على كل ما يندرج تحتها من موضوعات تُطرح على العامة، وتذاع على المنابر، وما تنتجه حلقات القرآن من شباب وفتيات لا يعرفون عن الدين إلا أحكام الفقه والتجويد، ولا يعرفون من السيرة إلا شكل النبي وأوصافه وكراماته ومعجزاته، لتغدو الفجوة كبيرة بينهم وبين الدين الحق، وبين الدين والواقع..

أما في مناهج المدرسة فيعطى لحصة الدين فضول الأوقات ويوجه لها البليد السيء من المدرسين إلا ما ندر..

وضمن ثقافة الخوف بات الترويج الإعلامي يضخم ويهوّل الأخطاء التي تقع ممن ينتسبون للإسلام، ويتجاهل أخطاء أكبر تقع ممن ينتسبون لسواه..

فأصبح الدين من مظاهر الخوف والرعب والحذر.. وبات النفور منه هو الانطباع السائد باللغة العالمية..

** ** ** **

الخوف من انتزاع السيادة..

وما أشبه هذا بخوف قريش يوم دعاهم رسول الله ﷺ للمبايعة على كلمة..

فلما عرفوا أنها لا إله إلا الله أبوا وأحجموا.. لأنهم أدركوا

أنها تعني انتزاع السيادة من البشر وأن يكون المُلك والجاه والعزّة لله وحده..

وللسبب ذاته ظلت الدول تتصارع على السيادة، تحاول بسط قوتها بصناعة الأسلحة، أو بتقوية أجهزة الأمن والاستخبارات،

** ** ** **

اعتمد الإعلام في العالم العربي عموماً على نشر ثقافة الخوف، بداية من أفلام الكارتون وما تبثه من أفكار وصور تشوّه الفطرة الإنسانية وتدفع الطفل للخوف والانزواء أو إلى العنف، الأمر الذي نلحظه في تعاملات الأطفال..

انتهاء بعكسه للخوف العالمي، من تنظيمات محددة، أو أفكار بعينها، مع كثير من التهويل والتضخيم، ليصبح بذلك الخوف عادة، يتحكم بها من يستلمون مقاليد الأمور في الإعلام المقروء والمرئي والمسموع.. مما يؤدي إلى جمود المجتمعات فكرياً، والقدرة على احتلالها واستعبادها بكل وسيلة ممكنة، ومما يؤدي إلى تغييب كثير من الحقائق وتضييع كثير من الحقوق حتى يأذن الله لفئة من أهل الوعي تنشر التغيير وتؤثّر لتُحدث النقلة المطلوبة.

** ** ** **

ندّعي أننا نعجز عن التغيير، ونقنع أن تظل الأمور كما هي، فللتحدي عواقب وثمن..

ومن يجرؤ على دفع ثمن باهظ كهذا إن لم يمتلك الإرادة القوية والإيمان الحق، فإنه سيهزم عند الجولة الأولى ليبقى الشبح ذاته يخيم ويتهدد ويتوعد.. بل إنه سيتضخم، ونحن.. سنتقزم.. لأننا سندعي إنها تجربة وفشلت.. فأي داع لتكرارها؟!!

** ** ** **

لننظر إلى موقف تم فيه كسر حاجز الخوف عمداً، كسر لإيقاظ الغافلين، وللالتفات إلى الأصل..

إن أبا أيوب الانصاري رضي الله عنه حين اصلح الخطأ لمن قالوا في ذلك الجندي المسلم يخوض صفوف الكفار ببسالة: ألقى بيده إلى التهلكة ,فقال لهم أبو أيوب: لقد نزلت الآية فينا معشر الأنصار حين قلنا: لقد نصر لله نبيه وأعز دينه فلنلتفت إلى دنيانا .. فكان ترك الإعداد للجهاد والإنفاق في سبيل الله هو الإلقاء باليد إلى التهلكة لأن في ضعف الأمة قوة العدو لا محالة.

** ** ** **

فاصلة:

ورحمة الله سبقت غضبه، ولهذا جعل المحبة تتعلق بالذات والصفات، وأما الخوف فإنه متعلق بالأفعال؛ لأن عذابه هو من فعله، وأما محبته فهو يُحَبُّ لذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه غفور رحيم ودود كريم، فاسم الله الودود يشعر بمحبة خاصة جداً. ولو تأمل الناس في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعرفوا الله، وإذا عرفوه حق المعرفة وعرفوا أنه ودود وغفور ورحيم، أحبوه فلم يعصوه، وإذا انزجروا عن معصيته - لأنهم يؤمنون بأنه الرحمن الرحيم الغفور الودود - لكانوا من أهل الهيبة والإجلال، وهذا أفضل من أن يكونوا من مجرد أهل الخوف . .

ابن القيم رحمه الله.

الفصل السابع

متاهات الخوف

الفصل السابع
متاهات الخوف

- لم تبدين حزينة؟

- الواقع السّيء.. أشعر للحظات أنه سيجرفنا.. ويغلبنا.. ويقتل فينا الحلم..

- ....

- لِمَ تضحك؟

- أولا يسمى هذا بالخوف..

- لم تعد تهمّني التسميات.. أريد البحث عن مخرج.. لقد تعبت...

- ما الذي استجدّ معكِ حتى تصلي إلى هذا الحد من التعب؟ كنتِ دائماً قويّة ومتفائلة..

- كان بإمكاني أن أجعل الواقع أفضل، لكنه يزداد سوءً بوجودي فيه..

- ما دليلك؟

- إنه لا يتحسّن..

– لكنك وكلٌّ من معك تتقدمون فيه كل خطوة إلى الأمام.. تزدادون وعياً.. تكبرون.. تحدّون من حجم السّوء فيه..

– لم أعد متأكدة حتى من ذلك..

– ولكن.......

– دعني... لا أرغب الحديث الآن عن أي شيء.....

– فقط قولي شيئاً... أيّ شيء!!

– "لوددت أني شجرة تعضد"...!

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: »إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضعٌ جبهته ساجداً لله، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد«.

** ** ** **

متاهات الخوف..

خائفٌ على نفسك، بعد أن قهرتهم بالخوف، بعد أن بِتّ مارداً عملاقاً يرعبهم وجودك. .

يطاردونك، يلاحقونك، يسألون عنك في كل مكان، وينشرون اسمك على الحواجز، يعتقلون كلّ من يشبهك، يرتعدون من سيرتك، يجدونك في كوابيس نومهم ويقظتهم. .

هم خائفونَ منك. .

وأنتَ خائفٌ على نفسك أن تزل. .

الزلل مُرعب بحدّ ذاته. .

والتفكيرُ في إمكانيّة حدوثه قاتل. .

وإمكانيّة حدوثه كبيرة جداً في ظل جنون الحرب، واختلاط الحق بالباطل، وفي ظل الأعمال العشوائيّة، وضياع الدين، وغياب القيم والمفاهيم الصحيحة. .

خائفٌ أن تخطط لمعركة فاشلة، فتضيع أرواح ودماء، أو أن تضعَ قرشاً في غير موضعه فتفسح باباً للمتسلقين والسلطويين أن يكبروا، أو أن تنطق كلمة تورث ضغينة وحقداً، تنفّرُ قلوب يجب أن تلتقي، فتباعد بينها. .

عدتما أنتَ والخوف للمواجهة. .

أتى هذه المرّة مسروراً واثق الخطى، وأتيت أيضاً واثقاً، تشوبك غمامة حزن، لكن السّكينة تغمر قلبك..

نداء لم ينقطع لحظة، بينك وبين ربّك، هو يراكَ ويسمعك، يعرف واقعك، ونيّتك، ومقصدك..

ووجه يتقلّبُ في السّماء لا يفتّش عن القِبلة، فهو يعرفها تماماً، لكنه يفتّش عن سبيل يتوجه الناس فيه إلى القبلة، يفتش عن وسيلة يضبط بها البوصلة..

أيّام الحرب طالت، ثلّة من الرائعين قد استشهدوا، وثلّة غابت خلف جدران السّجون الباردة..

أصحاب الصّبر الأقل قد انسحبوا، وتركوك في السّاحة وحدك، مع قلّة اختارت مثلك خيار البقاء..

خوفك عليهم لا يقلّ عن خوفك على نفسك..

كان الهمّ أن تكونوا معاً، وأن تحشروا معاً إلى الجنّة زمراً..

عدت مع الخوف إلى المواجهة..

وأتاك مسروراً يمشي واثق الخطى، وأتيت أنت واثقاً أيضاً، تغشى قلبك غمامة حزن ?ربّما- ولكن.. تغمره السّكينة..

لأول مرّة في حياتك تتمكّن من رؤيته بهذا الوضوح..

هو كالقمر..

له جانبٌ مظلم وآخر مضيء...

ووجه المضيء الذي اكتشفته..

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ الإسراء: ٥٧ .

تريد الخوف إلى جانبك كي تتقي به المخاطر، كي لا تقع في الزلل، كي تتخذ درع وقاية من السّقوط في الشّبهات..

تحاولُ أن تعرض على خوفك صفقة تعاون، أن تتابع.. ولا تتراخى، أن تتحرى الصواب، وألا تتبع غير سبيله، وأن تصرّ عليه، وتقاتل لأجله..

وأن يوقظك قبل كل زلل، وأن يحفّزك باستمرار لخير العمل، أن يدفعك للنهوض، ألا يسمح لك بالتراخي، أن يجعلك تواصل مهما تعبت..

لترتاح عند المحطّة الأخيرة..

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ٤٦- آل عمران

خائفٌ من الواقع الذي اختلطت فيه الأوراق كثيراً حتى بات صعباً تمييزها وترتيبها..

وأوراق ذهبت أدراج الرياح..

وأوراق مزّقتها العداوات فوأدتها قبل أن تولد على شفة مسلم حر..

خائفٌ والشّتات قد أعلن السّيادة، وضاع كثير من الحق بين

أيدي الغاصبين. . وبات المؤمن الذي أتى من أقاصي الدنيا ليعلن نصراً على أرضه التي اغترب عنها طويلاً، وأتى يشهد فتحاً بات في حيرة من أمره. . لا يدري كيف السّبيل إلى الخروج. .

والمؤمن الذي ولد وعـاش على هذه الأرض، والذي حطم أغلالاً كثيرة ليهزم طغياناً امتد وطال عليه الأمد. . ليواجهه وهو أعزل، سلاحه في قلبه، وقوّته في إيمانه العميق بعدالة الله. .

ذلك المؤمن الذي اصطدم بعوائق كثيرة. .

وجد نفسه يعود إلى الأغلال بشكل تدريجي. . ودون أن يشعر. . وجد نفسه يعود إلى أسر لم يتخيل أنه عائد إليه. .

بعد أن أعلن نداء الحرية. . وصرخ في الآفاق بكلمة التوحيد وكبّر. .

ليدرك أنه كان عليه أن ينقشها في قلبه بشكل أعمق. .

أن ينحتها في تلافيف دماغه. . أن يحولها مع كل صدمة إلى فكرة وموقف وعمل وعبرة. .

ان يعبرها حقاً رغم شعوره الطاغي بالسوء. .

أن يجتاز حجم الألم الرهيب الذي يقتله مع كل حادثة تؤكد له أن الطريق مازال طويلاً. . وبأنه كان في الدرجة تحت الصّفر. .

لتدفعه إلى نقطة الصّفر. . لتجعلها مرحلة العبور. . مرحلة الخطوة الأولى. . والهمّة الأولى. . والولادة الأولى المصحوبة هذه المرة بفهم عميق لكل الرواسب الحاصلة. . لماذا حصلت، وكيف

حصلت؟ وكيف يمكن هزيمتها وجعلها ركيزة وقوة، يقف عليها ثابتاً إنسان يعرف دوره ويدرك رسالته، فما عاد يحول بينه وبين تحقيقها أي رادع مهما بلغت درجة شدّته..

** ** ** **

خائفٌ من موجة زادت الواقع الأليم شدّة، ممن لبسوا لبوس الدين، ورفعوا راياته ليقنعوا أهل الأرض أنهم الصّواب، خالفوا تعاليمه، قتلوا وسفكوا الدماء، عطّلوا خيراً وشتتوا عملاً، صادروا قوافل السّلاح، وباسم الدين أيضاً فرضوا فهمهم للدين وأقحموه في أفهام الناس..

عقلية تجندت للتشويه، لإقناع الناس أنها الصواب، ومَن عاش حياته وقناعاته الميل للأقوى سيقنع بها.. ويلتفت إليها، مهما حملت من جمود أو انحراف أو تشويه..

خائفٌ على شباب أضاعوا البوصلة لأنه لم يتجند أحد لتوجيههم وتربيتهم..

خائف على العقول.. فلم يعد خوفك مقصوراً على الدماء..

لأن العقول ستتوارث، والجهل سيعشش إن بقي وتمدد، وسيظل راسخاً في الشعور واللاشعور سنيناً طويلة، ما لم نتيقظ ونتنبّه!

** ** ** **

خائفٌ على من قويت شوكتهم حين ضعف أهل الحق وتخلوا عن مواقعهم..

حجّموا الدين في طقوس واهية، لا صلة لها بالإسلام الصحيح، برمجوا العقول على الاستجابة والاتّباع بأن النصر قادم، وبأن الله سيهلك الظالمين حتماً، وبأنها فتنة، ولا اقتراب.. وكل ما يجب العمل عليه الآن هو لزوم البيوت أو المساجد للتعبد، وبذل كل الجهد والوسع والطاقة لاستحضار روح النبي كي تؤازرهم، وتدفع عنهم الصواريخ والرصاص والغلاء والأوبئة وسائر البلايا والمصائب..

** ** ** **

خائفٌ من أولئك الذين غرقوا ضمن الجوانب النظرية في أحزابهم، ولم تجد لهم وقع خطى على هذه الأرض ولا أدنى أثر، تقوقعوا داخل سطور كتبهم، وأغلقوها على أنفسهم، مع أنها تفيض بدعوات لجعل الدين عمل، لفهم القرآن وتطبيقه، للبعد عن العيش في عوالم المثالية، والانكباب على الواقع لتغييره وإصلاحه وبنائه والارتقاء به.. وبات تواصلهم مع الناس إما عبر شبكة الإنترنت أو عبر منشورات تلصق على الجدران..

خائفٌ من الذين يجعلون الدين تبعاً لأهوائهم.. فيظلمون ويبخسون حقوقاً ويضيعون فرصاً في تجنيد الطاقات، وتفعيل القدرات، ونشر الوعي اللازم للعمل الصحيح..

** ** ** **

خـائف بعـد كل مـا فـعلتـه أن تكـون منافـقـاً. . إذا ائتـمنت خُنت. . .

وهذا يدفعك للهرب أو الرّحيل، أو تجنب الجميع. . بدلاً من أن تعود إلى ثوابت دينك، وتمضي مُصلحاً. .

تظن أنك وحدك، لكن تأكد أن الجميع مثلك، يشاطرونك الشعور بأنهم أيضاً وحدهم. .

بالتأكيد قد أصبح الهمّ ثقيلاً جداً. .

ولكن. . . التراجع هو الموت ذاته!

** ** ** **

الفصل الثامن

الخوف مفتاح الأمل

الفصل الثامن

الخوف مفتاح الأمل

- تركوكِ جميعاً ورحلوا.. وأصبحتِ وحيدة..

- لم أكن يوماً وحيدة... أبداً...

- ماذا ستفعلين؟

- سأتابع الحياة أفضل مما بدأتها.. كان الاجتماع على فكرة.. حتى وإن أنكروها، سأبقى هنا أحارب لإحيائها..

- ما الذي يضطركِ على كل هذا العناء؟

- هو ذاته ما يضطرني لأن أتنفّس!!

** ** ** **

خائفٌ منهم.. وعليهم..

لأولئك الذين تركوا مهامهم ورحلوا غير آبهين بشيء، لمن رفعوا سريعاً رايات الاستسلام، لمن قرروا السكوت في زمن الأنين المتقطع وصرخات اليتامى والأرامل والثكالى.. ثم لم يحركوا ساكناً..

يتابعون العيش لا يعنيهم مهما سال من دم، أو عصف الألم..

للذين ينامون مطمئنين أن أمورهم على خير ما يرام، قد فارقهم الخوف لأن قلوبهم ماتت، فاقتصرت حياتهم على طعام وشراب ونوم ومتعة.. يقنعون أنفسهم أنهم غير آثمين.. و لن يسألوا عن تخاذلهم وخذلانهم لغيرهم..

أن يحمل الخوف حقيبته ويرحل عنكم.. فتلك هي المصيبة..

للذين لا تضطرب قلوبكم خوفاً من حساب على سلوك طريق خطأ، أو على صمت، أو التراجع عن النصرة..

لمن لا يتلمسون الخلل وإن عظم..

قلوبهم ماتت.. وفاتتهم حلاوة القرب من الله.. ووجل القلب الدائم المحاسبة، الذي جعل لحظات عمره رصيداً له يوم الدين..

قالت عائشة زوج النبي -ﷺ-: سألت رسول الله -ﷺ- عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال: "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات".

** ** ** **

خائفٌ منهم.. وعليهم..

فاستمرار الوضع على ما هو عليه لا ينبئ إلا بمزيد من الانقسام والفشل والخسارة..

وأكبر خسارة ممكنة.. هي خسارة النفس..

ولهذا أنت تخاف...

** ** ** **

يرعبك أن ينتهي فجأة حلم النصر والنجاة بمبادئك..

ذلك الحلم الذي طويت الليالي وأنت غارق فيه..

تفكر كيف تصل إليه، وأنت لا تدري أنه يشد الرحال إليك..

عشت ضمنه أجمل أيام حياتك.. كانت أياماً أحدثت فرقاً كبيراً في روحك وفي شخصيتك..

أصبحت تحبّ الإسلام أكثر، أصبحت متعلّقاً بالأرض أكثر وأكثر..

خشيتَ على ضياع الفكرة أو زوالها..

قدّمت كل ما تملك.. قدمت روحك، لتبقى تقاتل أعداء الله وتنصر المستضعفين..

تعلّمت أن الجهاد أنواع، واخترت ثغرك..

ومع الوقت بدأت العيوب تتكشّف..

بدأت ترى أشخاصاً وجماعات يشوهون الفكرة..

ليس هذا هو الجهاد الذي تطلبه، ليس ظلماً ولا اعتداء.. ليس تضييقاً لحقوق ولا جوراً على أبرياء..

كره الناس الفكرة، نتيجة إساءات متكررة لها..

الأفراد الشرفاء، والمجموعات النظيفة أرهقت..

وبات الظاهر على السّاحة للمستغلّين..

كنت تؤمن دائماً أن الجهاد لابد وأن يخدم العمل السّياسي، لكنك خفت أن يضيع تماماً وأن تفرض سياسة سيئة نفوذها، فتحتاج إلى جهاد آخر..

كنت تتألم وأنت ترى رفاقك وهم ينبذون فكرة التدخل السياسي والسياسيين يحاربون فكر الجهاد..

شيء ما في داخلك كان يتمزق... رُوحك تزهق..

الفكرة النّقية لابد أن تحيا. .

فأي سبيل لإحيائها من جديد؟

وكيف ينزع التشوه في العقول والنظرة؟

كنت دائماً توقن أن فكرة منطلقها وعمودها القرآن لن تموت مهما حاولوا. .

المهم أن يحييها رجال. . وأن يحيوها بالشكل الصحيح. . بالفهم الصحيح. . بالرؤية الشاملة، بالموازنة. .

كان عليك أن تنبذ خوفك وتكون ذلك الرجل الذي يدرس أبعاد كل مرحلة، ويعرف دوره. .

ذلك الرجل الذي لا يترك ثغره أياً كان فينفذ منه العدو. .

وفي كل ثغر. . لابد من رجال حق يقومون عليه بإخلاص، لا يسخف أحد عمل أخيه، ولا ينتقص منه ولا يتعالى عليه. .

وجدت نفسك. . والفكرة. .

آمنت أن القناع سينكشف كل يوم على حقائق أكبر، سيدرك الناس إلى أين يتجهون، وأي ظلم يحاربون، سيفهمون معنى الخديعة، ومعنى التسلّق على الدين، سيقاومون. .

وأنت لن تنتظر فوات الأوان حتى يفهموا. .

ستكافح لئلا تقع الكارثة، ستحمل على كاهلك مهمة التغيير. .

لأنك تفهم الوقوف ضد الظلم واحد، وإن تعددت أنواعه.. والثورة ضد الجاهلية واحدة..

** ** ** **

ضمن دائرة الخوف

تطرق أبوابهم.. وما من مجيب..

تتعمد أن تلقاهم في الأماكن التي يذهبون عادة إليها..

لكنهم يبادرونك بابتسامة جافة وحديث قصير..

تتحدى شعور الإحباط في داخلك، وتفتح معهم حديثاً لم تنم ليلة أمس وأنت تصوغه في فراشك، وأنت تتقلب على مواجعك..

والإجابة.. صمت أو اعتذار.. وما أكثر الأعذار...

نظام التربية الذي نشأت عليه فئة كبيرة من الشباب كان مرهوناً بالنجاحات..

كلمات الثناء مرتبطة بنجاح ما.. فهي لا توزع مجاناً ولا تُباع..

القبلة يطبعها الوالد على جبين ابنه قد يكون ثمنها فوزه بمباراة الحي مثلاً أو تحصيل العلامة الكاملة في دراسته..

الهدية التي كان يحلم بها ويتمناها لا تأتي هكذا.. بل لابد من تفوق يكتسح الأقران.. ولابد أن تتحدث المدينة كلها بالطفل

النابغة الذي لا يعرف للفشل طريقاً. .

أمور كثيرة في الحياة دفعتك للنجاح دفعاً. . ربما كان أهمها هو أن ترضيهم، فلا ترى الغضب في عيونهم. .

ولا زالت لعنة النجاح تطاردك وتقهرك من داخلك. .

تشعرك وكأنك شخص منوم مغناطيسياً، أو عملاق مربوط بحجر، كلما أراد التقدم إلى المكان الصحيح. . شدّه ذلك الحجر إلى الوراء. .

لم تعد مشكلتك مقتصرة على والديك. .

أصبحت ضمن دائرة مجتمع كبير يلاحقك، يفرض عليك شروطه وقوانينه وأعرافه، حتى لم تعد تعرف أنت. . . من تكون أنت؟!

قد تكون الثورة حررتك بطريقة ما، وزحزحت كثيراً من الركام عن مفاهيمك. .

جعلتك تتمرد على الشائع، ولأول مرة جعلتك تقول لا بأعلى صوت ممكن. .

لا للظلم. . لا للقهر. . لا للاستعباد. .

هذه المفاهيم التي ناديت بها وهتفت كثيراً في المظاهرات. .

كم كنت محتاجاً معها لوقفة تأمل وتصفية ذهن. . لتحيا بها ولا تكتفي بالهتاف. .

كان ذلك سيكلفك حياتك. .

وكنت مستعداً لذلك. .

لأنه الحق الذي وجدته. .

لكنك بعد مرور مدة كافية من الثورة. . وجدت نفسك تعود إلى الدائرة القديمة التي ظننت أنك قد خرجت منها. .

دائرة الخوف من عدم تحقيق النجاحات. .

معركة تلو معركة. . تحرير حيّ إثر حيّ. . ومدينة تلو مدينة. .

أنت تريد النجاح لتهزم ذلك العدو المستبد الذي يقهرك. .

** ** ** **

أنت تحمل شعارات، وغيرك يحمل أخرى، ولكن. . ماذا حدث بعد الهزيمة الأولى، وإلى أي شيء وصلت بعد الهزيمة الأخيرة، التي كانت بشهادة الأغلبية أنها ساحقة؟!

** ** ** **

شيء ما في أعماقك بات يشدّك إلى الخلف بقوة. . مهما حاولت إنكار وجوده، مهما ادّعيت أنك لا تراه. .

شيء يخبرك بخلل ما موجود، لكنك تجد صعوبة في العثور عليه، كيف تجده وكلّ خلايا دماغك اعتادت عليه، وعقلك وسلّم به، إنه معنى النّجاح والغاية منه. .

كان عليك أن تتحرك بدافع من نفسك وإرادتك، لا بتحريض الشارع والشعارات..

كان على الشعارات أن تُصنعَ في قلبك أولاً، ثم تخرج لتنقش في التاريخ مشروع حياة..

كان إيمانك النابع من القلب هو الذي يجب أن يدفعك لتسير في هذا الدرب، لتتكيف مع كل الظروف الصعبة(١٠).. لتغدو كل المشكلات عابرة سبيل في أرضك..

ولن تحتاج لأن تتردد أبداً..

كان مفهوم النجاح لن يغير من حقيقة كونك على الطريق الصّواب أي شيء..

لن يصبك بنشوة الفرح الغامر، ولن يدفعك دفعاً إلى نجاح غامر غير مخطط له، وغير مدروس، لتنال التصفيق والإعجاب والثّناء..

وكان أيضاً مفهوم الهزيمة لن يقتلك، لن يدمرك من داخلك أكثر مما تفعله الشيلكا بمدينتك.

لن ينكس رأسك ويجعلك ترتدّ بشدّة إلى نقطة الصّفر، فتكره العالم وتكره الثورة وتكره نفسك أيضاً.. وتظن أن الموت بات هو الخيار الوحيد..

(١٠) التكيف: التكيف استجابة يبدل بها الشخص سلوكه لكي يستجيب إلى الظروف. تتطلب الحياة الإنسانية جملة هائلة من التكيفات الجسمية والسيكولوجية على السواء: تكيف مع تغيرات الحرارة ووضع جديد وصدمة انفعالية.. إلخ.. وتنجم غالبية العقد عن فشل في التكيف.

الإيمان النابع من داخلك.. الإيمان الذي تشـــربتـــه في أعماقك.. الإيمان الذي دفعك بشكل تلقائي، بشكل مرن لأن تتحرك.. دون أن تسأل نفسك.. هل يجب أن أتحرك أم لا؟!!

الإيمان الذي دفعك لأن تضحي بروحك ونفسك ومالك لتنصر قضية، لتساند حقاً، لتقهر باطلاً.. دون أن تفكر بمسألة الثواب والعقاب من العالم المحيط.. دون أن يكون أي نجاح كالصنارة التي تصطادك.. بدلاً من أن تصطاد بها.. لتدفعك كل طاقاتك النفسية والروحية والعقلية والجسدية لتنال نجاحاً آخر أكبر.. لئلا تفشل.. ولتكون أول هزيمة بالنسبة إليك الباب المفتوح على مصراعيه لدخول عالم الجحيم.. على سلّم اليأس والإحباط والانهزامية والشلل.. دوامة لا تنتهي من الفشل..

الانهزامية جعلت كل أقرانك يكفرون بالقضية، لأن قوانين اللعبة كانت مفاجئة، ولأن أحداً لم يعلمهم كيف يتقدمون فيها بخطوات ثابتة..

لم يتعلموا تلك المرونة التي تتشكل من اختبارات الحياة التي قبل أن تخوضها لابد أن تعد لها عدة..

وإن جاءت مباغتة مفاجئة لابد وأن تتناغم ردود أفعالك بشكل سوي مع مفاجآتها وشدتها، فلا تستهلكك ولا تستغلك، ولا تدفعك للموت البطيء ولا لتمنيه.. بل على العكس تماماً.. إنها تثبّت أقدامك أكثر على طريق الحق.. توصلك لأن ترفع شخصياتك المؤمنة الواثقة السوية إلى مرحلة جديدة، تكون فيها

أكثر قوة، لأنك أكثر ثباتاً وثقة وإدراكاً لما تفعل، ولماذا تفعل، وكيف تفعل.

عندها ستكون النتيجة تحصيل حاصل.. لأنك ربحت..

لأن كنزك الحقيقي.. يقبع في داخلك..

** ** ** **

لو أدرك كثير من شباب الثورة عمق المسألة، لتوجهوا بكل علمهم وطاقاتهم وقدراتهم لخدمتها كما تستحق..

لجعلوا كامل إرادتهم الحرة لخدمة قضية تستحق أن تخدم بكل وسيلة.. لجندوا عقولهم بكامل التركيز والفهم لرفقتها، لإصلاح معوجها، لترميم صدوعها، لتغيير ما فسد أو انتهت صلاحيته من مفاهيمها.

ولكانت ثورتهم على أنفسهم قبل أي شيء..

ثورة تهذيب للنفوس وإصلاح مستمر، واختبار متواصل، يكونون فيها هم القدوات الفاعلة والطاقات العاملة التي تحدث التغيير المنشود.. ويتفاعل معها الناس لما يجدوه فيها من حرص على الصواب، ومن إشعاع وتوهج كالكوكب الدري.. الذي يضيء ويتوهج ويترك الهدوء في النفس المتعبة..

خائفون من عودة الظلم..

والطريقة الوحيدة التي يستطيعون التعبير عن خوفهم فيها هي المزيد من اللجوء إليه والتذلل له، وإعلان الطاعة والولاء له..

باب الخلاص الوحيد في نظرهم هو أن يعودوا عودتهم تلك.. لعل الأمور هي الأخرى تعود إلى سابق عهد..

البيوت التي قصفت، الحارات التي تحولت إلى مساكن أشباح.. الدماء التي سفكت، الآلام التي امتدت من القهر..

كل شيء في أوهامهم سيتغير، الحياة ستعود أفضل..

الأفضل في نظرهم البيت والمحل والعيش.. أي مجرد البقاء على قيد الحياة..

التفاصيل الأخرى لا تهم..

وما ظنوه مجرد تفاصيل كان في الحقيقة هو الأصل..

ترجمة الخوف في قبول مزيد من الظلم ترجمة مرضية..

الخوف شعور وهبه الله تعالى لنا ليدفعنا إلى الأمام.. ليجعلنا نتحدى ونقاوم ونرفض ونعلن عدم الاستسلام..

الخوف سيدفعنا لنتحد، لأننا معاً أقوى، سيدفعنا لإعداد العدة، فعدونا يحشد ويجيش وينظم ويرتب الصفوف ليبسط سلطته على أرضنا، ليجعلنا نعمل عنده كالعبيد.. لنقبل بالسوط والبندقية والمدفع أن يكونوا أسيادنا..

الخوف لابد أن يكون دافعاً لتلمس الخطأ وتداركه والتنقيب عن نقاط القوة والضعف واستغلال الطاقات وحشدها. .

الخوف سيدفع للعلم لأننا بعلمنا نتحداهم. .

الخوف سيحفز للعمل. . وللإيمان والقرب من الله تعالى. .

الخوف سيحفز كل طاقاتنا لتعمل. . سيوقد في العقول مشاعل أمل. . سيقربنا من الله أكثر. . سيحث خطواتنا على المسير دون قبول بالتراجع. .

الخوف جندي أمين لا يخادعنا، لكننا نخدعه، ونوهمه أن مهامه سلبية ولا قيمة لها. .

الخوف. . مفتاح الأمان. .

** ** ** **

صرخة الحرية التي جعلتك تولد من جديد. .

صوتك الذي أحببته للمرة الأولى. .

نفسك التي اكتشفتها. . حياتك التي ذقت لها طعماً مختلفاً. .

روح الجماعة التي تسربت إلى كيانك، فهزتك من الأعماق. .

حياتك التي بعتها لله. .

تجارتك التي أعلنتها. .

الجنة التي قررت أن تشتريها. .

أولوياتك التي أعدت ترتيبها. .

الموت الذي بتّ متأهباً لمواجهته. .

الحياة التي أحببتها عندما تعلمت كيف تعمل فيها على خير وجه. . أقرانك الذين تحلقوا حولك وساروا معك. . على ذات الطريق. .

مفرداتك الجديدة التي تعلمتها لتصوغ منها حياة مختلفة. .

أحزانك التي نزفتها. .

لحظات غضبك التي أتت بك من بعيد. .

أفراحك المعلنة مع كل انتصار. .

بسمة الشهيد رغم أشلاء مبعثرة. .

القبر الذي يحتضنه. . دموعك التي تذرفها. .

قوانينك التي سننتها، ثوابتك التي راجعتها. .

إيمانك الذي جددته. .

إنسانيتك التي وجدتها وقد قررت أن تكون في الدنيا مثل غريب. .

أو عابر سبيل. .

كلها أنوار تصب في خانة واحدة. .

هي الإيمان. .

فاصلة:

المجتمعات التي تعتم على النقد وتمنع كلمة الحق، وتغلّب أهواء النّفس، هي مجتمعات لا ترغب بالتّقدّم والتّطوّر والازدهار..

والأفراد الذين يستسلمون للصّمت عند أول هجوم عليهم بسبب قولهم الحق، هم أفراد لا يستحقون حمل أعباء المجتمع والنهوض به..

الجبن.. والخوف من الناس وتقديمه على الخوف من الله تعالى بداية السّقوط..

وشباب ثاروا وقدّموا أرواحهم ليقولوا كلمة حق عند سلطان جائر حريّ بهم ألا يصمتوا على إخوة لهم ظُلموا.. فليبادروا ليأخذوا على أيديهم..

ولا ننسى أن نقولها ولكن بإحسان.. "وقولوا للناس حُسناً"

إيمان..

الفصل التاسع

ادخلوا عليهم الباب

الفصل التاسع

ادخلوا عليهم الباب

- أتيتُ لأخبركِ أنني قررتُ الرحيل.. أتيتُ لأودعك..

- هل هذه إحدى خدعك أيها الخوف؟

- بل هي المرة الأولى التي أحدثك فيها بكل صدق وشفافية.. لقد اكتشفت مدى الشّرّ الذي أحمله.. وقررت الرّحيل.. أعلم أنك لا تريدين رؤية وجهي ثانية.. ولذلك سأغربه عنكِ..

- انتظر......دعنا نجلس على طاولة المفاوضات من جديد...

- سأعود ولكن.. على حقيقتي.. وبهويتي الأصليّة.. سأعودُ ذلك الخوف القديم الجديد.. الصالح المُصلح.. أريدُ منكِ شيئاً واحداً فقط...

- ماذا تريد؟

- أمهليني فرصة كي أعود..

بعد رحيله..

بمجرّد أن هزمته، أصبح طوعاً لك، وأعلن لكَ الولاء..

تكتشف أنك كلما تذكرته لاحت لك تلك الذكريات القديمة التي استطعت بمعونة الله أن تختمها بأفعال، أن تجنّد نفسك في الحياة بشكل صحيح دون أن يقيّدك.. تندم على كل لحظة قضيتها وأنت تحت سلطته..

قد تصادفه يتجول حولك، وتبتسم بكل سعادة لأنه لا يقترب منك..

تأسف على كلّ المحاصرين به، المعتقلين في سجونه، المعذبين بسوطه، المتألمين من جبروته.. وتحمد الله على تجاوزه..

تفكّر.. هل تراه يخطط لعمليّة جديدة ضدّك؟!!

هل تراه يرغب بالنّيل منك؟

إنه في كل مرّة يرفع السّقف أكثر في مواجهتك..

تارة يهددك كلاماً، وتارة إيهاماً، وتارة يباغتك برمي الرّصاص..

أو يوقع عقداً مع الطغاة فيرافقهم في دوريّاتهم، ومكاتبهم، وسراديبهم، وسجونهم، وقصورهم، وأقبيتهم.. يرافق من يهددك باعتقال أحد من أقاربك، أو اعتقالك أنت شخصياً

وتعذيبك حتى الموت..

وتجده يصعّد أكثر، يأتي مع الصواريخ والطائرات، ينوّع في الطرق والأصوات..

يتطور إلى حدّ لا تتخيله، وبسرعة لا تتوقّعها..

يرافق هدم البيوت، وتشريد الناس، وإشاعة الدمار في الأمكنة بعد أن إشاعتها في النفوس..

لكنه لا ينكر عجزه أمام عزيمتك، وتضاؤله أمام إيمانك..

يعترف أنك ورفاقك قد هزمتموه في معركة كبيرة، وتعترف أنه أمدّك بقوّة دافعة للأمام، جعلتك لا تتوقّف أبداً، لأنك لا تود العودة إلى تحت سقفه، ولا تريد أن تظل طوال عمرك مقيّداً به..

وتأتي مرحلة جديدة بعد الخلاص منه..

قد تتحوّل إلى نقمة غير واعية، ورغبة بالانتقام دون أي تفكير..

وقد تتحول إلى عمل مبني على التفكير والتخطيط، إلى فاعليّة حقّة.. حتى وإن أحاطت بك كل الظروف الصّعبة، حتى وإن كنت معتقلاً..

ثمة أوراق يمكنك دائماً ترتيبها في عقلك..

ثمّة حرّيّة لا تعترف أبداً بالقيود المادّيّة، وأنت في كل ظرف مهما كان قاهراً وصعباً.. تعمل على الاستفادة من أفق الحرّيّة

الواسع الذي جنيته، وتفعيل ذلك كلّه ببناء نفسك وما حولك من جديد. .

فتجلس مع نفسك للمراجعة، ترتّب كل أوراقك، تعيد تنظيم أولويّاتك، تبحث في واقعك، تسجّل كل الدروس المستفادة من تاريخك وماضيك، وتنظر إلى المستقبل. .

ولا تقبل أبداً بمجرد التفاؤل والأمل. . لابد من صبر[١١] دافع للنهوض. . صبر يستحق تلك البشارة. .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٥-١٥٦-١٥٧

** ** ** **

قال تعالى: ﴿فإن خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليكِ وجاعلوهُ من المُرسلين﴾ القصص: ٧

بعض المشاعر تأتي مُباغتة، تحير المرء كيف الوصول إلى السّلوك الصحيح. .

---

(١١) الصبر: أن يكون الإنسان صبوراً يعني، من الناحية الاشتقاقية، أن يحسن معاناة الألم ويتجلد ويتحمل. فقوام الصبر أن يحسن الإنسان انتظار كل ما يتأخر عن موعد قدومه. . . وقد يكون الصبر طبيعياً، ولكنه عرض من أعراض القصور في بعض الأحيان. فبعض الأشخاص يبدون " صبورين " في حين أنهم ليسوا سوى لا مبالين، واهني العزيمة، منطوين على ذواتهم.
والصبر تعبير عن الحكمة والتحرر من الذات في الحالات السوية. فهو نتيجة القوة والوضوح.

بعض الحبّ يُشعر بالعجز، فيحار المرء أمامه ماذا يفعل، وكيف يحمي من يحب. .

تتجلى تلك الصورة واضحة في مشهد أم تقاوم بطش طاغية قرر أن يقتل أبناء بني إسرائيل. .

أم أتت بوليدها إلى عالم أسود، لعله يكون الشمس التي تغمره نوراً. .

كانت تأمل أن تكون له حياة أفضل، أن يتبدل الزمان على عهده أو يتغير، أن يزول حكم الطغاة. .

ولكن. . كيف للواقع أن يتغير والزمان فشا فيه الظلم، وجند الطاغية يطوفون البيوت يفتشون عن الصبية الصغار لينفذوا فيهم حكم القتل، وليمعنوا في القهر والإذلال. .

وعيونهم ترصد وتراقب في أرجاء المدينة، خوفاً من أن يأتي طفل ينتزع الملك ممن توهّم أنه المَلِك. .

ورغماً عنهم وعن بطشهم وعيونهم. . . يأتي الطفل لينفذ مشيئة الله. .

فهل يل تراها أمه قد حدثتها نفسها نادمة لماذا قد أتت به؟ وما الذي دفعها لتأتي به في ذلك الزمن العصيب. .

أتراها ندمت للحظة وتمنت لو أنه لم يأتِ؟

بالتأكيد لم تفعل، بل احتضنه بكل فيض حنان الأم. .

خافت عليه، فأين السبيل لإخفائه؟ وكيف سيدفعها الخوف لحمايته؟!!

يلهمها الله تعالى أن تضعه في صندوق وتلقيه في اليم..

هو خوف آخر جديد..

وهي بين نارين..

أن تحتفظ به وهو وهي مهددان بالهلاك إن اكتشف أمرهما.. ونار إلقائه في اليم فيبتلعه..

الخوف دفعها لأن تقاوم ولا تستسلم لليأس..

دفعها لأن تبحث عن حيلة ووسيلة، ولا يقودها الرعب منهم لأن تقدمه لقمة سائغة لهم..

امتزج الخوف بالطمأنينة لقرار إلقائه في اليم..

شعور الحزن تلاشى مع تسليمها التام بحماية الله ورعايته لوليدها..

يقينها أنها قد أتت به إلى هذا العالم ليصلحه، ليكون به أجمل، دفعها لأن تغامر، وتفتح طريقاً جديداً..

فكرة جديدة، ذكية، جريئة، لا تقوم بها إلا امرأة جبلت على الإيمان..

امرأة صاحبة هدف، ذات عاطفة وعقل صُهرا معاً، فكان القرار وكان العمل..

وكانت عودته إليها.. بعد خوض الاختبار والنجاة منه

لتحتضنه، لتستشعر رعاية الله تعالى لها، وعطفه عليها، وتنفيذه لوعده..

هي آمنت وصدّقت وأخلصت النية وبادرت وعملت..

أخذت بكل الأسباب الممكنة وأسلمت أمرها لله، فكان أن ولد النبي، وأعمر الأرض بالإيمان..

بمعجزة التحدي والإصرار، بدرس عظيم خلّدته شجاعة أم إلى يوم الدين..

** ** ** **

الخوف في ظلّ الأمن

أشيـاء كثيـرة تشـدّك للخلف، تحـفّزك على الفرار منها.. والنجاة بنفسك..

من لوثة عقول أضاعت بوصلة الهداية..

من أفكار دنست لتبرر العجز والخذلان..

من " لا " فقدت هويتها حين ألبسوها قناعاً بمعنى " نعم "

من قلوب مهما فعلت لا تطمئن..

من دورية أمن وهمـية تطاردك في كل شارع تسلكه لتعتقل روحك.. وتهرب منها ولا تجد نجاة.. لتكتشف أخيراً أنها غير موجودة إلا في خيالك وحسب..

وبأن الاعتقال كان بأغلال نفسك.. وكذلك القيد والجلاد والسجان والحاكم..

من أحـلام تاهت وشـردت وقـضت آخـر الليل تبكي على الرصيف ثم غادرت حزينة..

من طريق موحل شائك بات الثبات عليه أشق من أي زمن..

ولكن فكرة مغادرته هي الموت المحتم..

من مجد صنعته ثم ألقيت به في صندوق التبرعات وأهديته

لكل انتهازي يطلبه..

واكتفيت بجوهرة تشع ولا تُرى.. بنبض يجول أرض المدينة يأخذك أيها العابر في الحياة إلى حيث تريد.. ليخبرك كم أنت سعيد..

وتقنع نفسك أنك بخير، وأن النجاة لنفسك وحدها قد تُفيد، لكن درب الأنبياء يُغري دائماً بأن تضحي وأن تعود..

ففك القيد أغلى.. وتحرير العبيد...

** ** ** **

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ التوبة: ١٣

نكث الأيمان ونقض العهود ومحاولات النيل من كرامة المسلم وعدم تقدير إنسانيّته وحرّيته، والمبادأة بالقتال..

حدثت حينها فكانت الدعوة الرّبّانيّة لقتالهم..

وما يحصل اليوم عكس ذلك..

يُغلّب أقوامٌ خشية الناس على خشية الله، تُنكث الأيمان في عهود واتفاقيات كثيرة..

يُضيّق على أهل الحق، يقاتلون، يسجنون، يُستضعفون، يبادرون بالتعدي..

ومع ذلك.. الاحتفاظ بالرّد هو الحل في نظر الأغلبية..

تضيع الكرامات، وتهدر الحقوق، ويُتعدى على الحرّيّات ومازلنا نخشاهم . .

الرّد واضح والشّرط واضح . .

﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ ، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ .

** ** ** **

خوفهم النابع من فراغ، وخوفك المضيء بالإيمان . .

تظنّه في البداية صراعاً داخلياً، مشكلة سُلطة وتمضي . .

تأخذك المعارك والمواجهات وانكشاف الأقنعة إلى حقائق أعمق كانت مغيّبة . .

هي ليست مشكلة داخلية، وكرسيّ وحاكم . .

انظر إلى العالم كلّه كيف يصوّب سهامه نحوك . . ويتغاضى عن كل الجرائم ويقنعك بتعاطفه . .

قد تُذهل في البداية . .

لماذا دينك؟ مسجدك؟ مصحفك؟

لماذا يركزون في عدوانهم على ما تُعظّم؟

أهي رغبة بالإغاظة؟ أم أنه خوفٌ عميقٌ منك؟ ومما تحمله في قلبك، ويترجمه عملك . .

**   **   **   **

خوفٌ وأمان

- لقد قضيت الفترة الماضية كلها وأنا أفكر. .

- بماذا خرجت؟

- قررت استعادة جذوري. . أسلمت لله رب العالمين. . وأرجو ألا أكون قد تأخرت. .

- بابه مفتوحٌ دائماً للتائبين. . ولكن. . ماذا عن رواسبك في النفوس، شياطينك الذين ولدوا؟ أتباعك الذين انتشروا في كل مكان؟

- سأعمل على إصلاحهم. . سأجاهد مثلكم كي أصلح ما فسد. .

- قم معي إذاً. . .

- إلى أين؟؟

- لندخل عليهم الباب. . . .

**   **   **   **

ادخلوا عليهم الباب

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الشمس: ٢٣

قال الطبري -رحمه الله-: قيل إن معنى ذلك: أنعم الله عليهما بالخوف.

هكذا يغدو الخوف نعمة، وباباً من أبواب الأمان..

كم من أبواب ظلت موصدة لا يقدر أحد على فتحها ودخولها، فقتلت دون ذلك مشاريع نهضة وبناء..

كم من تحالف مع الخوف تم إجهاضه وقُتل في مهده، كان سيتحول إلى عملاق يهز أركان المجرمين..

المشكلة أن الجميع تواكلوا..

ولم يتعلموا كيف يتوكلوا وهم يدخلون الباب.. ولذلك فاتتهم الغَلَبة..

لأنهم ضعفوا وجبنوا، ولم يستطيعوا أن يجنّدوا الخوف ولا أن يجعلوا منه محفزاً للتقدم وتحقيق النصر..

في نهاية المطاف.. ومهما كان الواقع مؤلماً ومتعباً وصعب التصديق، لا سبيل لتغييره إلا باقتحامه ودخوله..

لا مجال لأن تترك أرضاً جعلك الله عليها خليفة، لأجل أن يفسدوا - هم - فيها ويسفكوا الدماء.

لا سبيل لأن يسودوا -هم- إن أنت قررت البقاء كما يجب أن تبقى، كما أمرت أن تبقى..

كل المشكلة أن الناس يخافون من دخول الباب، ولا يخافون ممن كلّفهم بدخول الباب واقتحامه..

وكل المشكلة أن من ظنوا أنفسهم جبابرة الأرض سادوا وتكبروا، فنسي الناس جبّار السموات والأرض.. وقنعوا أنهم مضطهدين لا حول لهم ولا قوة فبقي الباب موصداً..

المشكلات لا تُحلّ إلا بمواجهتها، وتفكيكها، ومعالجة أسبابها، والخلوص إلى نتائجها..

ومشكلتنا تنبع من أعماقنا، فإن أردنا حلّها، لابد أن نغوص إلى تلك الأعماق، فنصلح لنمتلك قوة المواجهة...

وحين نقرر فك الأغلال بشكل نهائي، ودفع الظلم بكل أشكاله..

سيُفتح الباب لنا وتكتب الغَلَبة..بإذنه تعالى..

** ** ** **

الشّجاعة لتقبّل الإعداد زمناً وطاقة.. والصّبر على مشقّته، ليست أقل من شجاعة اقتحام المعارك.. لابد أن يتوافقا معاً ليشكلا عملاً صواباً..

وإلا.. فما فائدة أن تحاول تسيير العجلة، وأنت لا تملك الوقود الكافي ليوصلك إلى غايتك!

** ** ** **

فاصلة:

"يبدو لي أحياناً أنه لكي يستطيع الإنسان احتمال ضغوط

الحياة، فإن عليه أن ينزل إلى الدائرة التاسعة من الجحيم. وذلك يعني احتمال ما لا يحتمل، وقبول ما لا يمكن قبوله، قبول كل ما يخيف. . الجميع كلهم.

وعندما يتهيأ له أنه تعرض لجميع مصائب هذا العالم، وأنه شرب من جميع الكؤوس المرة ما عدا تلك الأشد مرارة ليأخذها ويشربها في القاع.

يقولون: بأنه يوجد بعض الناس الذين استسلموا منذ الليلة الأولى. هل هم أولئك الذين انحدروا إلى القاع ذاته؟ وعندما عادو فإن ما بقي منهم هو ما يمكن أن يبقى تجاه العالم كله - السماء والأرض- وبدون خوف ينظرون إلى كل حقيقة في العيون. وكل ما يمكن أن يحدث لهم، ولا شيء يخيفهم، لا وجود لأي نوع من الخوف.

إنهم أولئك المستعدون لعيش حياتهم مهما كانت، والمحافظة عليها للنهاية بهدوء واحترام. وأولئك الذين يمكنهم احتمال الحياة، يمكنهم احتمال الموت، لأن الحياة أصعب وأخطر من الموت".

علي عزت بيغوفيتش

الفصل العاشر

الهوية واحدة ولكن ..

الفصل العاشر

الهوية واحدة ولكن..

- مزحة سخيفة منك.. أو ربّما هي مقصودة..

- لم يُجبركِ أحد أن تضغطي على زر عدم الحفظ بعد ساعات من الكتابة..

- صحيح.. لم يجبرني أحد.. لكنك كنتَ الشعور الكامن في اللاوعي تحرّض على الحذف لتحبطني.. أنتَ دائماً تفعل ذلك!!..

- كنتُ واثقاً بوعيك..

- مؤسف أن يثق الآخرون بوعينا أكثر من ثقتنا به نحن!!

- غلبتكِ إذاً؟؟

- ربّما.. ولكن.. سأعيد الكتابة من جديد..

** ** ** **

هويّة واحدة وكثير من التزييف..

هناك فرق شاسع بين القلق الحضاري السّوي الذي يرتقي بالأمة حين يجعلها تشعر بالأزمة ودوافعها وأبعادها ونتائجها، حتى تتدارك مشكلاتها وتعمل على الحلول.. وبين جلد الذات وتعميق الشعور بالذنب بشكل مرضي يورثها الشلل والعجز ويجعلها لا تبرح ساكنا..

كل الذين يعترفون أنهم غير قادرين على تغيير طباعهم وعاداتهم، إنما يشكلون لأنفسهم جدراً من الحماية، ليبتعدوا بذلك عن مشكلات العالم، وعن كونهم معنيّين بها..

لا أستطيع تغيير نفسي = دائرة من العطالة تبدأ بفرد وتنتهي بأمة..

** ** ** **

أنا الخوف.. أعلن انشقاقي عن كل أوجه السوء التي مثّلتها، وكل الأقنعة التي ارتديتها، وانضمامي إلى جذوري المباركة الطيبة، نصيراً للمؤمنين.. وعدوّاً للكافرين..

وهذه هويّتي..

** ** ** **

الخوفُ لعبة..

استعملتها الأنظمة لتقهر شعوباً، لقّنتها لأطفال المدارس، علّمتها للرّضيع والشّيخ الكبير..

فرضتها بشكلٍ منتظم ودائم ومستمر، لتمارس الرّبح على رقعة الشّطرنج وحدها..

إذ أن لهذه اللعبة قوانين ترهب كل من يواجهها، وما إن يدرك الخطر، حتى يبادر بالانسحاب..

الخوفُ تنويم مغناطيسي

أن عدوك أقوى منك، وأنك مهزوم مهزوم..

وأن سبُل النجاة مستحيلة، فالرّبّانُ قُتل، والقاربُ غرق، ولا نجار محترف قادر على صنع طوق للنجاة..

الخوفُ قيد

أينما تحرّكت يُعيدك إليه، ويشدّك إلى الوراء، يعلمك أنه مصنوع من فولاذ، لا يسمح لك حتى أن تتحقق من صحّة هذه المعلومة..

كلما حاولت الخلاص أو الفرار، ضيّق عليكَ أكثر..

وكلما تعبت أرخى لك القيد لتتأقلم مع وجوده، لتألفه.. ثم لا يلبث أن يعيد الكرّة، إن طرأت في ذهنك فكرة التحرر منه.

الخوفُ مرض

وعدواه كبيرة، ينتقل عبر طرق لا تخطر في بال. .

يهبك فرصة واحدة للفرار، يخفي عليك حقيقة امتلاكك للخيار. . فإذا ما استسلمت له، واقتنعت بحجّته، ووهبت له عقلك وروحك وقلبك، أحكم عليك السّيطرة، فصرت له أسيراً إلى الأبد. .

ليهن جسدك، وتُعطّل طاقاتك، وتقضي العمر تعمل تحت سقفه. .

يسبقك كل من بدأ معك. . وتبقى وحدك، مقتنعاً بشللك. .

لائماً الدنيا كلّها لأنها تخلّت عنك. . .

الخوف سلطان

حتى الطغاة يحكمهم الخوف، حتى من اخترعوا وصنعوا وامتلكوا أعتى أنواع الأسلحة، إنما صنعوها بدافع الخوف على أنفسهم وسُلطتهم وسيادتهم. .

فهم أيضاً عبيدٌ يحكمهم الخوف، يذلّهم ويتحكّم بهم. . .

الخوفُ جريمة

في عنقه دماء زكيّة سُفكت، وأبرياء ظُلموا، وخيرات دُنّست، وحرمات انتهكت، وأوبئة انتشرت. . وحروبٌ قامت، وشعوبٌ اختبرت وامتُحنت. . فهو يأتي بمعنى الحرب والقتل. .

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ﴾ البقرة: ١٥٥

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الأحزاب: ١٩

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الأحزاب: ١٩

الخوفُ يعشق الظّهور..

لا يفضّل أن يتقولب في تعاريف وتصنيفات، لأنه يعتبر نفسه فوقها تماماً..

وسواء عرّفوه بمعنى الفزع، أو الذعر، أو توقع حلول مكروه وفوات محبوب كما يُعرّف في اللغة..

.. يبقى الخوف لغة عالميّة، وشعورٌ لا يمكن التغاضي عنه أو تجاهله..

قد يأتي كشبحٍ مرعب ينصبُ خيمته أمام دارك، يتوغّل إلى العتبة، يسكن في غرفتك، ويستوطن أحلامك.. قد يعقد صفقة مع ظلّك، أو يجري مع الدم في شرايينك، وقد يصبح أيضاً لغتك..

تغيم معه سماؤك كآبة وأسى، وتُغلق في وجهك الأبواب، تُعلّق صورة ترعبك، تخبرك بمصير ما قد يقتلك التفكير فيه قبل أن يحدث.. وقد لا يحدث أبداً..

الخوف له وجهٌ آخر جميل ومشرق..

يصنع منك الإنسان الحق، يدفعك للنهوض والتطور، يسحبك ليقودك إلى درب الخلاص.. يحملك على أن تتغيّر وتغيّر واقعك.. يُصلح حالك من دون أن تدري..

وأياً كان وجه الخوف، فلا يمكننا أبداً أن ننكر تأثيره..

الخوف رفيق العلماء..

الخشية ميزة المتقين، الأصفياء، الذين اختارهم الله وقربهم إليه، الذين بذلوا أعمارهم ليكتسبوا علماً يعرفهم به سبحانه ويدلهم عليه..

الخشية زاد العلماء في مسيرتهم لعمارة الأرض، وتحقيق دور الإنسان المستخلف فيها على خير وجه..

الخشية أخصّ من الخوف.. ولن تكون لأي كان.. إلا لمن اختار العلم منهجاً في هذه الحياة..

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر:٢٨

** ** ** **

الخوف عبادة

إن مفهوم العبادة الذي يرافقنا بأشكال وصور كثيرة يرتبط في أعماقنا بمفهوم التغيير..

فتصبح الصلاة أساساً لتغيير العالم عبر تغيير النفس..

ويغـدو القـرآن هـو المنارة المرشـدة لنـا في عـواصف الحـيـاة، والشمس الهادية في سكونها. .

ويغـدو الإيمان بالقـضـاء والقـدر حـافـزاً ومحـرضـاً لمزيد من العمل، وترك الاستسلام. .

العـمـل الذي يتـرجم بإصـلاح لا يتـوقف، مـبـدؤه الـنفس، وكيفية تفاعلها مع كل المحيط حولها. . .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ النحل: ٥٠

** ** ** **

نهاية الحكاية..

خوفٌ وأمان

- هل انتهت؟

- لا يمكن لها أن تنتهي يوماً.. هي رحلة مستمرّة على هذه الأرض إلى يوم الدين..

- ما العمل إذاً؟

- زرعوا فأكلنا.. ونزرع فيأكلون...

- لابد أن نُحسن في عملنا حتى لا يغدو حالنا كمن يحاول جني الحصاد من البحر..

- الأمر ليس بهذه السهولة..

- أبداً ليس سهلاً.. وقد يقطف أعمارنا... لكن أشجارنا ستثمر يوماً من أجلهم..

- من هؤلاء؟!!

- الجيل القادم الذي يراقبنا اليوم، ويترقب منا عملاً نقدمه لغد.. يمكنني قراءة ذلك جيّداً في عيونهم..

- وفي ابتساماتهم المشرقة أيضاً...

- هل من وصيّة؟

** ** ** **

مهما كنت اليوم تجد نفسك ضعيفاً. . إلا أن العدل الذي تقيمه في ميزان قلبك هو الذي سيمنحك القوّة لتستمر.

** ** ** **

الخاتمة

كثيراً ما تكتب حروفاً معجمة تود أن تقولها، وتُخبر بها العالم. .

لكنك تقرر في لحظة أن تكتفي بالصمت وتغادر معتبراً الكلام حماقة تقترفها كل يوم. . لتجد ضميرك يسأل برسالة عاجلة:

- هل تريد المغادرة دون الانتهاء؟

تفكر. . كثيراً ما نرحل فجأة. . وقد نترك خلفنا الكثير مما يُقال أو يُفعل دون الانتهاء منه. .

في لحظات مفاجئة. نسلم سجل أعمالنا لله. . . ونخبره بما يعلمه. . بما رآه وحده، بدمع حرقتنا. . بابتسامات أملنا. . بنداءاتنا وصرخاتنا. . بمشروعاتنا التي هممنا بها أو تلك التي أغلقنا سجلاتها بعد انتهائها. . أو تلك التي غضضنا الطرف عن إكمالها عمداً لخلل وجدناه فيها. .

نخبره تعالى بما يعلمه تماماً ظاهره وباطنه. . بكل ما أرسلناه له قبل أن نقرر الرحيل. . أو حين تُسلم أرواحنا لقدره دون سابق إنذار. . .

فتعود لتكتب وصيّتك، وتنقش لحظات عمرك على جدار التاريخ، لعلها تجد من يقرأها ذات محنة. .

تم بحمد الله. .